حديث قلم

حفنى مصطفى

تليفون المؤلف : ٢٥٣٤٤٣٢

رقم الإيداع : ٨٦٨٥ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى I.S.B.N

977 0 17 0 3223 - 4

مطبعة الحرف الذهبى

ت : ٥٦١٩٦٨٦

﴿ن والقلم وما يسطرون﴾

" سورة القلم الآية(١)"

إهـــداء

إلى روح أمى العظيمة التى علمتنى منذ بواكير الحيـاة رغـم أميتهـا القاهـرة أن أحترم القلم ؛ لأنه رمز العلم والصلاح ؛ فلما انتقلت إلى الـدار الأخرة منذ أيام بأمر الله ، انفجر قلبى من فرط حبى لها فى البكاء ، وبكـى القلم وسال دمعه على خده الجميل .. فلما شاهدت القلم على هـذه الحـال ، أدركت أن أمى له بمثابة الأستاذ ، فجف دمعى ، إلا أن دمع صـديقى القلـم مازال فى إزدياد .

المؤلف

المقدمة :

يتفاخر الإنسان بالقلم لعلمه أنه أقدم من الزمان ، بل من الدنيا ؛ فهــو أول مخلوقات الله ، وهو سفير العقل ، ولسان البصر ، ومطية الفكر .

والقلم فى رحلة الحياة وإن كانت له وظيفة واحدة وهى الكتابة ، إلا أن له أشكالاً كثيرة تتطور بتطور الزمان .. وهو للإنــسان كالمــاء والهــواء لا نستطيع أن نحجبه عن أى فرد ، فتراه فى يد العالم والجاهل ، والذكى والغبى ، والصغير والكبير ، يحمله أصحاب الضمائر المبصرة ، فإذا به يتحول بين أيديهم إلى شهد يجلو الصدور والعقول ، وإلى شموع تضئ الطرق والفيافى فى الليل الدامس ، وإلى صرح يبنى ويشيد وينسج ويصنع العسل ويضعه فــى خــدور الكتــب .

ويحمله من ماتت ضمائرهم ، أو نامت نوماً له غطيط ، فيتحــول فــى أيديهم بين عشية وضحاها ، بل بين لحظة وأخرى ، إلى معاول تهدم النفــوس والقلوب ، وإلى ثعابين نَهَّاشة ، وعقارب لَسَّاعة ، وذئاب عاوية ، وإلى كــلاب مسعورة ، فإذا بالعقول قد غُلِقَتْ ، وبالرقاع قد طويت ، وإذا بالكتــب وليــدة العقول قد سُئِلت بأى ذنب قُتِلت ؟

ولو قُدِرَ لهؤلاء الذين يكرهون القلم كرههم لأى شيء ، أن ينظروا إلى ما وراء ستار الغد ، لملأوا سمع الليل عويلاً ونواحاً ؛ لأنهم سوف يدركون أن القلم لا يحمل لأحدهم ضغينة ، ولكن أنفسهم يظلمون ويكذبون .

وهو – القلم – وإن كان سيف الشجاع ، فهو أيضاً السلاح الشرعى فى تلك الأزمان التى تُشْتَرى فيها نفيسات النفوس بزيوف الفلوس ، وتباع الأمم والسرائر بالابتسام وهز الرؤوس٠٠وهو الجُندى الكمى موفور الشجاعة والحماسة ، الذى أقسم أن يجود بروحه ، ولو لم يكن فى كفه غيرها ؛ حتى يرى – أو يسمع من تحت الثرى إن صار شهيداً – أن عروش هذه الدول ، أو الحكومات الجائرة التى تلجأ فيما تلجأ إلى القوانين فتغيرها وتُبدلها ، وتحذف منها وتزيد عليها ، حتى تجعلها أداة إرهاب وتعذيب ، قد هوت وصارت نسياً منسياً ٠

وإنك لتضحك وتَغْرق فى الضحك ، أو تبكى وتغرق فى البكاء ، إذا عرفت أن القلم يَهَابه الملوك والقياصرة ، وكل جبار متمرد عاتٍ ؛ فهو أصم ، لكنه يسمع النجوى ، وأبكم ، لكنه يُفْصِح عن الفَحْوى ، وهو أعيا من "باقل" ، وأفصح وأبلغ مِن " سحبان بن وائل" ، يُتَرجم عن الشاهد، ويُخْبِر عن الغائب ، خاصة إذا كان صاحبه دائم الشموخ ، أقسم بينه وبين نفسه على ألا يستجدى أحداً لكى يحصل على المكانة التى يستحقها ٠

والقلم قديماً كانوا يطلقون عليه لفظ "اليراع" أو " المزبر" ، أخذاً من قولهم : زَبَرتُ الكتاب، إذا أتقنت كتابته ، ومنه سُميت الكتب زُبُرًا كما فى قوله تعالى : ﴿ وإنه لفى زبر الأولين ﴾
وفى حديث سيدنا أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – أنه فى مرضه دعا بدواة ومزبر ، فكتب اسم الخليفة من بعده .

عزيزى القارئ ..

الكتاب الذى بين يديك عبارة عن حوارات شفيفة تدور رحاها بين الأديب والقلــم .. ولأن القلم صديق كل مفكر ومبدع ، ولأنه شاهد على كل العصور ، رأى الكاتب أن يتحدث صديقه القلم إلى جميع أصدقائه فى كل مكان عن الكامن الخبئ بداخله ، فهو منذ أن خلقه الله إلى الآن وهو يكتب فقط ولا يتحدث ، إلا أن القلم فطن أخيراً لهذه الحقيقة ، وأراد أن يحــذو حــذو الكُتــاب والعُلمـــاء والمفكرين ، فهل يفلح القلم ؟ وهو الذى أقسم لى قبل بــدء حديثــه أن تــأتى كلماته موضوعية ؛ لأنه يحب الوطن ، بل يعشقه عشق الظمآن للماء البارد فى اليوم القائظ ، ولا أخفى عليكم أننى قمت بتصديقه ، عندما رفع أكف الضراعة إلى ربه فقال : " اللهم أسألك لساناً صادقاً بالصواب والحكمة ، وقلماً لا جولــة له فى ميادين قِلَّة الحَيَاء " .

حفنى مصطفى

الفصل الأول

حديث قلم

مرحباً بالصديق القلم

كان الليل قد أسدل أستاره منذ ساعات ، والهدوء من حـــولى يُرفــرف بجناحيه كعصافير الشروق الفرحانة بالنور ٠٠ وأنا حينذاك أجلس على مكتبى مستغرقاً فى التفكير ، بل بالأحرى أستحضر خيوط عقلى التى شتتتها ضوضاء النهار ؛ لكتابة تلك القصة التى استولت على كل مشاعــرى ٠

شعرت بالإرهاق الشديد ينتابنى ، فتوقفت عن الكتابة قلــيلاً ، وأرحــت رأسى على المقعد ؛ لعل ثورة قلبى وعقلى المتأججة مع أحداث القصة تهــدأ ، وعند ذلك أشعر بالعافية تدب فى جسدى من جديد ٠

وبينا أنا على هذه الحال ، سمعت حركة غير عادية بالمكتــب ، فقمــت على أثرها واقفاً والفزع يتملكنى ٠٠ ودون أن أشعر وجدت نفسى أهرع ناحية التلفاز لأفتحه ؛ لعَلّى أقف على حقيقة ما يحدث ، ظناً منى أن الزلزال اللعــين جاء يداعبنى، لأنه يعلم أننى أجلس بمفردى ٠٠ لكن سرعان ما رأيت أن برامج التلفاز لم تتوقف قدر لحظة ، فعدت أجلس من جديد على مكتبى ٠

قلت فى نفسى : لعل بطل هذه الحركة التى أفزعتنى فأر ، جاء ليلهــو معى ؛ حتى يلفت انتباهى إلى أننى تجاوزت الحد ، عندما اتخذت مـــن الليــل خليـــلاً ، فكيف لا أدرك أن الليل خلق له ولأمثاله ٠٠ أوَيدرى هذا المخلـــوق الصغير المزعج ، أن القلم والأديب لا يجتمعان فى ضوضاء النهار ، وأنه لا بد وأن يأتى الليل مسرعاً حتى يسمع كل منهما همس الآخر؟

أيعاقبنى هذا الفأر لأننى أناجى قلمى فى الليل ، لذلك عقد العزم على أن يتسلل دون إرادتى إلى أحد أدراج المكتب ؟ هدأت نفسى ووجدتنى أفتح أدراج المكتب ، الدُرج تلو الآخر .. تعجبت عندما رأيت أن كل شيء كما هو لم يتحرك ، أصابتنى الحيرة ، ولم يبق أمامى إلا أن أفتح هذا الدرج الذى لا أسمح لغيرى بفتحه، والذى أحتفظ داخله بكَمٍّ هائل من الأقلام المختلفة الأشكال والألوان والأحجام ، والتى يشهد بعضها على طفولتى السعيدة الممزوجة بالسذاجة والطهر، يوم كنت أحيا كما تحيا البلابل والطيور .. ويشهد بعضها الآخر على شبابى المتدفق بالحركة والحيوية والنشاط .. ويشهد أَحْدَثُها على كهولتى التى تطالعها السعادة ، وهى ترى حرث السنين وهما يخطوان خطواتهم فى الحياة ، وأنا غير هيابٍ من حَرِ السنين ولا من صقيعها ولا أمراضها ، خاصة بعد أن أثمر الحرث وأينع واشتد عوده .

وبينما أنا أنظر إلى الأقلام والفرحة تسرى فى جسدى من رأسى إلى قدمى ، إذا بى أرى أن أحد الأقلام – وهو أكبرها عمرًا – هو الذى أحدث هذه الجلبة والحركة التى أفزعتنى منذ قليل .. فى رفق أمسكت بالقلم وبعيدًا عن أبنائه وأبناء عمومته وأقرانه قلت له معاتبًا فى ودٍ : " لماذا كل هذه الجلبة ياصديقى القلم العجوز الشاب " ؟!

بصوت خفيض يمتزج بأسمى معانى الحب قال القلم معقبًا على سؤالى : " ياأرباب العلم والأدب ، أصحاب القلم ، كتبتم على مَرِ القرون كل ما يحلو لكم من شعر ونثر وقصة ورواية ، كل هذا سطرتموه بالقلم ، لأنكم

تعلمون أنه أداة الإبداع ٠٠ فهلاّ سمحتم اليوم للقلم رمــز الإبــداع أن يكتــب مذكراته هو الآخر وحكاياته وطرائفه مع الزمان ؟؟

ودون أن أدرى رأيتنى أقبّل القلم قائلاً له بلهفة المُحب : " يا مرحى بما قلت ، إنه ليُسْعِد الإنسان فى أى مكان أن يسمع أو يقرأ حديث القلم٠

لذلك أطلب منك فى حميمية ، وأُلِحُ فى طلبى ، أن تأذن لى فى أن أدير معك حواراً غير محدد المدة ، تقول فيه كل ما يدور بعقلك ويسكّن قلبك" ؟

أومأ القلم بالموافقة ، والسعادة تبدو على وجهه ، عند ذلك قلت موجهاً سؤالى لصديقى:" فى البداية أرى أن تُعَرفَنا بنفسك وإن كنــت أعرفــك حــق المعرفة " ؟

أخذ القلم شهيقاً عميقاً قبل الغوص فى بحر حديثه، ثم قال والبِــشْر يعلو وجهه الصبوح :" أنا بلا فخر أداة الإبداع ، أنا التاريخ بحلوه ومره ، بل أنا كل العلوم ٠٠ أنا صديق الجاهل والعالم ، والــصغير والكبيــر ٠٠ يصمت القلم قليلاً ثم يتابع مرة أخرى : " عشت وزاملت الإنــسان أرقــى مخلوقات الله فى كل بقاع الدنيا ، تارة يحملنى فى يده وتارة أخرى يحملنى فى جيبه أو حقيبته ، لذلك ترونني أجيد كل لغات العالم بطلاقة وبراعــة ، حديثاً وكتابةً ، ولكن لا أخفيكم سراً أن اللغة العربية أسرتنى بحبها لأنهــا لغة القرآن" ٠

اعتدل القلم فى جلسته ، وحرك عصاه التى يتوكأ عليها وقال :" أنا أول مخلوقات الله ، خلقنى ربى ثم أمرنى أن أكتب ، فقلت : وماذا أكتب يا ربـــى ؟ قال عز وجل : أكتب مقدرات الناس حتى تقوم الساعة" [1].

وأراد الله ذو الفضل العظيم أن يحس الإنسان بأهميتى فجاء بـســـورة القلم ، واستهلها سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ... والقلم وما يسطرون ﴾

ثم ينظر القلم إلى الأفق البعيد ، وكأنه يتذكر شيئاً على قـــدر مـــن الأهمية وسُرْعان ما يقول بوجهه البشوش :" لا أحسب أن الإنسان يخطئ إذا سُئِل عن عمره كم هو .. ولكن هل تصدقوننى إن قلت لكم إن القلم لا يدرى كم عمره" ؟ !!

وهنا يقاطع أحد الأقلام الصغيرة – الذى فَضّلَ حضور هذا الحـــديث الباسم أوله وآخره شيخ الأقلام ويسأله مستفسراً : " يا شـــيخنا ، كيـــف تزعم ذلك ، ونحن ندرى أن القلم عالم فى الحساب ، ضليع فى قواعد اللغة العربيـــة ، كما أنه فقيه فى كل العلوم الأخرى " ؟

يهز القلم رأسه ويقول بلسان المعلم : " يا أيها القلم الطفل ، فلتعلم أن عمر القلم لا يقاس بالسنين كعمر بنى البـــشر ، ولا حتـــى بـــالقرون ،

---

[1] منهاج المسلم لأبى بكر الجزائرى ، المدينة المنورة /١٩٦٤ .

حينذاك تستطيع حسابه ، بل إن عمر القلم بدأ قبل الدنيا ، وسوف ينتهـــى مع نهايتها عندما يأذن الله بذلك " .

رأيتنى أُنَصِّب من نفسى وكيلاً للنيابة ، وفى دعابة بادرتُ صديقى القلم قائلاً: " صار الناس فى مصر وخارجها ، لا حديث لهم إلا عن هذا الحب الكبير الذى جمع بين القلم والورقة .. حتى قيل إن الورقة تتزين وتتجمل للقلم فـــى الصباح والمساء، فتارةً نراها بيضاء ، وأخرى نـــشاهدها حمـــراء ، وثالثـــة صفـــراء ، وإن هذا الحب يزيد اليوم تلو الآخر ، فما قولك فيما هو منـــسوب إليك ؟ ".

عندئذٍ يبتسم القلم ابتسامة عريضة ، ويقول فى دبلوماسية ، بـــل فـــى فطنة وذكاء : "القلم والورقة كالرجل والمرأة ، لا ينبغـــى لأحـــدهما أن يكـــره الآخـــر ، وكذلك القلم والورقة لا ينبغى لأحدهما أن يكره الآخر .. فإن كـــان جميعنا يعلم أن الرجل والمرأة يمثلان طرفى الحياة .. فعلينا أن ندرك أيضاً أن القلم والورقة يمثلان طرفى الإبداع .. نثراً و شعراً وتاريخاً ، فكيف بطرفـــى الإبداع أن يمقت أحدهما الآخر؟ أو يغمض أحدهما عينيه عن حبيبه قيد نهار ، أو قدر لحظة .. ولا أحسبنى أبالغ إن قلت : " إنه لا فائدة للقلم بغير الورقة ، ولا فائدة للورقة بلا قلم ، إلا إذا سمعنا ذات يوم أن صديقنا الإنسان اخترع قلماً يكتب على الهواء ، وحيث إنه لم يخترع هذا الاختراع بعد ، ولن يخترعه ، فإن القلم سيظل يُسَطِّر على الورقة بمداده الملتهب شوقاً أحلى وأعذب كلام حتـــى تقوم الساعة " .

يقترب أحد الأقلام الناشئة من شيخ الأقلام ، وعيناه تلتمعان بالدمع، عند ذلك يدرك الكبير الذى حلب الدهر أشطره ، أن ثمة سـؤالاً يحتـبس بـداخل الصغيــر ، وكم يحزنه ذلك ، فإذا بالشيخ يطلب منه أن يلقى بسؤاله فوراً على مسامعه ٠

قال الصغير بعد ما هدأ الحزن بداخله :" ياطويل العمر ، ياصادق القلب واللسان ، نحن نتعرض كل يوم لظلم بعض نفرٍ من بنى البـشر ٠٠ أسـمعهم يقولون وهم يمشون بين الناس أن القلم يمقت الإنسان ٠٠ حتى لقـد رأيـت ظلمهم يكاد يصل لعنان السماء ، عندما سمعتهم فى أحد الأيام يقولون بصوت عالٍ : " إن القلم يكره الأطفال ٠ ولأننى صغير السن ، ومازلـت أدرج علـى أعتاب الحياة ، وحديث العهد بالإنسان ، فترانى وكأن لسانى قد انعقد فى فمى ، وسكت عن الكلام ٠٠ والآن أناشدك أن تأمرنا ألا نتعامل مع الإنـسان ، فـلا نتخذه خليلاً بعد اليوم" ٠

نظر الشيخ فوجد عين القلم الصغير تلتمع بالدمع ، وصدره يعلو ويهبط فأدرك بفراسته مقدار الحزن الذى ألمّ به ، عند ذلك نظر إليه وقـال لـه فـى سـرور : " رغم حداثة سنك ، إلا أننى أراك شفيف النفس والقلب ، لهذا أقول لك بلسان صدوق: " نَعَم الظلم يُلهب القلب ويُدميه ، ويُدمع العيـن ، ولكن هل يذهب حزنك إن علمت أن الإنسان قد يظلم نفـسه ، فـلا غرابـة إذا ظلـم الآخريـن "٠

ثم صمت القلم وراح فنظر إلَيّ فرآني مغتبطاً بحديثه ، فلما تحول ببصره للأقلام الصغيرة رأى الدهشة وقد ارتسمت على وجوههم ، فتعجب ، إلا أن عجبه تبدد عندما بادره أحدهم بالسؤال قائلاً :" يا أبانا الشيخ ، نحن نعلم أنه لا غرابة فى أن يظلم الإنسان الآخرين ، ولكن كيف يظلم نفسه " ؟

يقترب شيخ الأقلام من حافة الكرسى ، ويشير بعصاه نحو السائل قائلاً له: " ما حُكمك على رجل أو شاب لا يقيم للوقت وزنًا ؟ وما حكمك فيمن يُفَضِّل الغِش والفهلوة عن جادة العِلم "؟ قال السائل معقبًا :" اللَّهم أراه ظالماً لنفسه " .

فى أسفٍ يهز القلم الشيخ رأسه قائلاً :" كيف بأول مخلوقات الله ، المأمور من قبل الله ، كالماء أن يصل إلى الظمأى فى كل مكان ، أن يكره الإنسان بصفة عامة ، بل وكيف يحجب نفسه عن العالِم والجاهل ، والأديب والسَفِيه ، والصغير والكبير؟! .. يأبنائى : الأقلام لا تعرف البُغض لأنها لا تطمع أو تطمح إلى مجدٍ ، بل تعطى بسماحةٍ المجدَ للإنسان المتطلع إليه ، والذى يسعى سعيًا دؤوبًا للوصول إليه ".

ثم تذكّر كبير الأقلام كلمات الصغير فثار قائلاً فى حدة :" لا يكره الأطفال إلا عُميان الأبصار والبصيرة .. ومن يزعم أن ثمة عداوة بين القلم والأطفال فهو بلا شك مريض قلب ومجنون عقل .. ولأننى صادق القلب واللسان والسريرة أقسم لكم ولبنى البشر : إن أسعد لحظات يعيشها القلم هى تلك اللحظات التى يرى فيها الطفل يمسك بالقلم للمرة الأولى .. ويَخُط خُطُوطًا ، أو

يكتب كلاماً ٠٠ قد يكون مفهوماً له ، ولكنه غير مفهوم لمن حوله ٠٠ ولعل سعادتى وسعادتكم تكمن فى أنه يحاول دون أن يتطرق اليأس إلى داخله ٠

ولكننى أشهدكم أننى أعتب على كل طفل ، بل وأحزن منه ، إذا صار لا يعرف قدرى ٠٠ فأراه تارة يضعنى فى فمه ويؤلمنى بأسنانه غير مبالٍ أننى أتألم ، ولكننى أتحمل آلامى وأحزانى حباً فيه ٠٠ أو أراه يتعمد أن يقضى على حياتى فى يوم وليلة عن طريق الموسى أو البرَّاية ، أو يقوم فيُخبئنى ، ويدعى بالكذب أننى رحلت عنه بلا رجعة ٠٠ ولأننى أحب الأطفال وأتوسم فيهم كل الخير ، ألفت نظرهم فقط لفداحة ما يفعلونه بالأقلام ، وأقول لهم هامسًا ، بل محباً : إنه سوف ينشأ بينى وبينهم حب كبير إذا ما أقلعوا عن ذلك " ٠

ولإحقاق الحق نقول : " إن القلم يمقت بشدة هؤلاء الذين يعرفون قدره ، ويعرفون كم يكره القلم الظلم ، وكم يحب الحق والعدل والإنصاف ، إلا أنهم ينحرفون بأقلامهم عن جادة الحق ، نظير مجد زائل ، أو حفنة من الدنانير ، فإن أسعدتهم أيام وأيام ، فهى فى المقابل تشقى أبرياء ، وربما تهدم الجدران على رؤوسهم فتخمد أنفاسهم إلى الأبد " ٠

القلم يحكى والجميع ينصتون

نظر إلىَّ القلم نظرة تنطق عما بداخله من حب نحـــوى ، وفـــى بِـشر وحماسة قال : " أيها الصديق ، لعلك تعلم أنت وأترابك أن بداخلى نهراً متدفقاً من الكلمات والروايات ، أشعر أنها شاخت ؛ لأنه لا يلتفت إليها أحد منذ زمن ، فلئن سألتنى اغترفت لك من ماء نهرى الحفنة والحفنتين ، والكأس والكأسين ، عند ذلك يتجدد شباب النهر وشبابى ، فهل أنت فاعل " ؟؟؟

فـــى فرحـــة وجدتـــنى اقترب من مترجم العقـــول ، وفى وداعة رأيتنى أقول : " يا أبا الأقلام ، ياصديق الكُتَّاب ، لك فى نفْس وعقل كـــل منـــا مَعَـــزَّة خاصـــة ؛ فأنت التاريخ ، وأنت ضمير كل منا الذى يكمن بداخله .. فلئن شئت أن تُخرِج الغصة المتأججة بداخلى ، فلتقصّ على أسماعنا قصة هؤلاء القـــوم الذين لا خلاق لهم ، ولا نرجو منهم عِفَّةً ولا كرامـــةً ، فـــإذا بهـــم يـــسيئون السيـــرة ، وإذا بأيديهم تمتد بالانتقام ممن لايجرؤون على الشّكَاية "؟

أومأ صديقى القلم برأسه وقال فى زهو جليل وتأسّ نبيـــل : " كلهـــم واحـــد ، فلما رأى الأعناق قد تطاولت ابتسم وقال : " خرج سيدنا عيسى عليه السلام سائحاً، وكان يحمل من الزاد رغيفاً ، فتتبعـــه يهـــودى وكـــان يحمـــل رغيفيـــن .. فلما شاهده نبى الله عيسى قال له : تشاركنى طعـــامى ؟ قـــال : نعـــم ، إلا أن اليهودى ندم ندماً شديداً كاد يودى به ، عندما نظر فشاهد فى يد عيسى رغيفاً واحداً .. ولما حان وقت الطعام ، جاء اليهودى برغيف واحد ،

وفى دهشة سأله سيدنا عيسى عليه السلام : ماذا فعلت بالرغيف الآخر ؟ حينذاك قال اليهودى: ما كان معى إلا رغيف واحد ".

عندما فرغ الاثنان من طعامهما سارا، فشاهد عيسى عليه السلام رجلاً أعمى فدعا له ، فرد الله عليه بصره .. وقتذاك نظر عيسى إلى اليهودى وقال له : " يايهودى بحق الذى أراك هذا الأعمى بصيراً ، ماذا فعلت بالرغيف الثانى " ؟ ارتبك اليهودى قليلاً ، إلا أنه سرعان ما تماسك وقال معقباً : " ما كان معى إلا رغيف واحد " .

ثم مَرَّ عيسى واليهودى برجل قعيد ، فدعا له نبى الله عيسى ، فإذا هو صحيح .. هنا نظر عيسى إلى اليهودى وقال له : " بحق الذى أراك هذا القعيد صحيحاً ، أين الرغيف الثانى " ؟ ، قال : " ما كان معى سوى رغيف واحد " .

ثم سارا فوجدا نهرًا ، فأخذ عيسى عليه السلام بيد اليهودى ، ومر به على الماء ، وإذا به يسأله بعد عبورهما النهر فيقول : " بحق الذى أمشاك على الماء ، أين الرغيف الثانى ؟ " ، فقال اليهودى : " والله ما كان معى إلا واحد " .

وبينا هما يسيران ، وجد عيسى عليه السلام غزالة ترعى فدعاها ، فأقبلت نحوه ، فذبحها وأكلا منها ، ثم دعا لها بالحياة فقامت .. عند ذلك نظر عيسى إلى اليهودى وقال له : " بحق من أحياها أين الرغيف الثانى ؟ " فقال اليهودى : " ما كان معى إلا رغيف واحد ".

شعر اليهودى بالعطش الشديد ، فنظر حوله ، فإذا به وسط صحراء مترامية الأطراف لا زرع فيها ولا ماء ٠٠ فلما وقع بصره على عيسى أدرك من فوره أنه يرافق نبياً مباركاً ، عند ذلك طلب من عيسى ماءً ٠٠ أسرع عيسى فضرب حجراً بعصاه ، فنبع منه ماء عذب فُرات، فشرب اليهودى حتى ارتوى ٠٠ هز عيسى رأسه وهو ينظر لليهودى ويقول له : " بحق الذى أراك هذه المعجزة أين الرغيف الثانى ؟ " فقال : " ما كان معى إلا رغيف واحد " ٠

وصل عيسى عليه السلام واليهودى إلى إحدى القرى ، فجلسا يستريحان فى ظل شجرة وارفَة ، فنام عيسى ٠٠ أسرع الشيطان وأخذ يلعب برأس صاحبه اليهودى ، فَزَيَّن له أن نوم عيسى ما هو إلا الفرصة السانحة ، فلما اختمرت الوساوس الشيطانية برأس اليهودى ، وحركه الطمع ، قام فسرق عصا عيسى ، وأخذ يحدث نفسه قائلاً فى نشوة المخمور: " الآن أحيى الموتى " ٠

ثم مشى وأخذ ينادى : الطبيب الطبيب ، فأدخلوه على الملك وهو يَئِنّ من شدة المرض ، فضرب اليهودى الملك بالعصا فمات ، فضربه مرة أخرى قائلاً : " قُمْ، فلم يَقُمْ " ، فلما طارت عقول المحيطون بالملك أسرعوا إلى اليهودى فأخذوه وصلبوه" ٠

بلغ عيسى عليه السلام خبر اليهودى ، فأسرع إليه والحزن يبدو عليه ، وسرعان ما قال للذين عزموا على قتل اليهودى : " أنا أحيى لكم صاحبكم بإذن الله، على أن تتركوا صاحبى" ٠٠ فدعا عيسى للملك بالحياة ، فأحياه الله

تعالى ، هنا التفت عيسى إلى اليهودى وراح يسأله قائلاً : " بحق مـــن أحيـــا الملـــك ، من أخذ الرغيف الثانى ؟ " ، قال : " والله ما كان معى إلا واحد " ٠

جلس عيسى عليه السلام واليهودى على الأرض وكوّما أكوامًا ثلاثة من التراب ، ثم دعا عيسى الله سبحانه وتعالى أن تكون ذهباً ، فصارت ذهباً بإذن الله ، حينذاك قال عيسى عليه السلام لليهودى : " بحق من أراك هذه المعجزة أين الرغيف الثانى ؟ " ، قال : " ما كان معى إلا واحداً " ٠

نظر عيسى إلى اليهـــودى وقال له مداعبًا طمعه الـــذى يـــسرى فـــى عروقـــه : " إحدى هذه الأكوام لى ، والأخرى لك ، أما الثالثة فهى لمن أخـــذ الرغيف ؟ " ٠

هبّ اليهودى واقفاً وقال فى لهفةٍ : " أنا الذى أخذت الرغيف " ، فقال له عيسى عليه السلام فى أسفٍ : كلها لك ، وتركه ومشى ٠

جلس اليهودى بجوار الذهب يتأمله بعين الطامع ، وبقلب الفرح ، وبينا هو على هذه الحال مَرَّ به رجلان من قطاع الطريق ، فلما شاهد كـــل منهمـــا الذهب سال لعابه ، واتفقوا الثلاثة فيما بينهم على أن يأخذ كـــل واحـــد مـــنهم كومة٠

فلما مرت الساعات بطيئة متثاقلة ، وشعروا بالجوع ٠٠ أشار علـــيهم اليهودى أن يذهب فيحضر لهما الخبز٠٠ وبينما هو فى الطريق ، حدثته نفسه

التى لا تشبع من كثير ولا تقنع من قليل ، أن يضع لقاطعى الطريق سُـماً فـى الطعام٠٠ أما هما فاتفقا على قتله بعد أن يعود ، فيفوزان وحدهما بالذهب ٠

وعندما عـاد اليهودى أسرعـا فقتلاه ، ثم جلسـا يأكـلان الطعـام ، فماتا وتركا المال٠٠ فمر بهم سيدنا عيسى عليه السلام ومعه صـحابته فقـال مشيراً إلى الذهب : "ها هى الدنيا فاحذروها " ٠

ولعلى أجـزم أن سيدنا عيسى أراد أن يقـول : " أنهم كلهم هذا الرجل الطَّمَاع ، أو لعله قالها وقتذاك ، ولكننى أنا القلم لم أسمعها ، لذلك لم أكتبها " ٠

القلم والمرأة والتاريخ

رأيت ثَّمَةً سؤال يجول بخاطرى ، فوجدتنى أعتدل فى جلستى وأسأل شيخ الأقلام قائلاً : " الشجاعة صبر ساعة " ٠٠ نظرت فإذا برِقاب الأقلام قد تطاولت ، وإذا بعيونهم قد اتسعت ٠٠ عند ذلك أدركت أن علىَّ أن أستكمل السؤال ، أو بالأحرى استفرغ جل ما يجول بخاطرى ٠٠ حركت رأسى وكأننى ألتمس منهم العذر ، فلما رأيت الابتسامة عادت إلى وجوههم بعد أن ذهبت الدهشة عنهم قلت : "يتصور البعض أن الشجاعة مقصورة على الرجال دون النساء ، والتاريخ يحدثنا، وأنتَ مُسطِرَه ، أن المرأة لم تدع للرجل فضيلة يثنى عطفه بها إلا وفعلتها ، حتى الشجاعة لبست المرأة لباسها كالرجال" ٠

وما كانت شجاعتها أثرًا فى الغلظة ، أو ظمئاً إلى الدماء ، ولا أحسب إلا أنها كانت والله قوة فاضت بها وفرة الصبر ، وابتعثتها قوة اليقين ٠٠ وإن قال البعض عنها : إنها أصبر من الرجل على ريب الزمان ٠٠ فما لها لا تكون فى المحنة أبسل منه وأشد ؟ لذلك رأيت ياصديقى القلم أن تدير شريط ذكرياتك ، وتَقُص علينا خبرًا عن هؤلاء النسوة اللاتى يروق لك الحديث عنهن " ؟

لم أكد أفرغ من حديثى ، حتى رأيت شيخ الأقلام يجهز نفسه للكلام ، وكأنه كان ينتظر منى أن أطرق هذا الباب ، ولم تمر إلا لحظة أو تكاد حتى سمعت القلم يقول : " تعلمون أن (الحجاج بن يوسف) كان من أَجْرأ الُولاة

إسرافًا فى سفك الدماء ، وكان بجانب ذلك قادرًا على بث الفزع والرعب فـى نفوس الناس ، حتى قال عنه الأقربون : " إنه إذا غضب فى مجلسه ، فلا يبقى أحد فى المجلس إلا ركبته الهموم وارتعدت فرائصه ، وتحسس رأسه ، حتـى يتأكد أنها لا تزال قائمة".

وذات يوم جاء " عشماوى " بنى أمية .. الحجاج بن يوسف ، بـامرأة من نساء الخوارج ، فجعل يكلمها وهى لا تلتفت إليه ، فقيل لها : الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين إليه ؟ فقالت : أنى لأستحى أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه ، فأمر بها فقتلت .

وقيدت إليه أخرى فقال لها متوعدًا : والله لأعُدَّنَكم عـدًّا ولأحـصُدَنَكُم حَصْدًا ، فقالت له : " الله يزرع وأنت تحصد ، فأين قدرة المخلوق مـن قـدرة الخـالق " ؟ [١]

سكت القلم قليلاً ؛ لعله يتذكر الماضى ، أو لعله يلتقط أنفاسه ، فلما نظر ورأى السكون يخيم على المكان ، وشاهدنا ونحن نُصْغى إليه فى شغف بالـغ قـال : " وقد أورد (الجاحظ) و " المبرد" حديث (البلْجاء) ، وهى امرأة من بنى تميم نهضت تثير الخوارج فى العراق ، وتؤلبهـم على " عبيـد الله بـن زياد" .. فنذر بها عبيد الله فذهب إلى شيخ الخوارج " أبى بلال بن حُـدَير " ، فقـال له : " يا أبا بلال إنى سمعت البارحة الأمير عبيد الله بـن زيـاد يـذكر

---

[١] بلاغات النساء ، ص ١٣٤-١٤٣ .

البلجـــاء ، وأحسبها ستؤخذ [1] ، فمضى إليها أبو بلال فقال لها : " إن الله قد وسع على المؤمنين فى التقيَة فاستترى ، فإن هذا المسرف على نفسه الجبـــار العنيد قد ذكرك " ، فقالت : " إن يأخذنى فهو أشقى بى ، فأما أنا فما أُحِـــب أن يُعْنَت إنسان بسببى " ٠

وسُرعان ما وجه إليها عبيد الله ، فأتى بها فقطع يدها ورجليها ورمـــى بها فى الســـوق ٠٠ فمر أبو بـــلال والناس مجتمعـــون فقـــال : مـــا هذا ؟ ، فقالـــــوا : البلجاء ، فعرج إليها ، فنظر ، ثم عضَّ على لحيته وقال لنفســـه : " لهذه أطيب نفسًا عن بقية الدنيا منك يا مرداس" ، ولبثت البلجاء ما شاء الله أن تلبث ، ولم تسمع لها آهة ولا أنّة إلا أن تَذكر الله وتشكره "٠ [2]

فإن كان ما سمعتم الآن قليل من كثير ، مما يشهد للمرأة العربيـــة فـــى عهد إسلامها بأحكام الدين فى ذات نفسها ، واستهانتها بالـــدم والـــروح فـــى سبيلـــه ، فتعالوا أقصّ على أسماعكم حكاية امرأة تدعى (غزالة الحرورية) ، وكانت تخلع قلب جبار العراق " الحجاج بن يوسف الثقفى " عندما يسمع اسمها أو يشم ريحها أو تطوف بخاطره٠

---

[1] ستؤخذ أى سيطلبها الأمير ٠

[2] البيان والتبيين ، والكامل ، ج٢ ص ١٥٩ ٠

اقتــرب أحــد الأقــلام الشــابة مــن والــده الشيخ وسأله فى دهشة مستفسرًا : " ألِهذا الحد كان يهابها الحجاج " ؟ قال : وأكثر ، وهنا بادره الشاب قائلاً :" إذاً مَن هى ؟ وماذا فعلت بداهية العراق " ؟ .

اعتدل القلم الشيخ فى جلسته ، وأخذ ينظر إلى الأفق البعيــد ، وكأنــه يستحضر التاريخ ، إلا أنه سرعان ما قال : " غزالة الحرورية " هى أحد القادة الأكفاء الذين دوخوا البلاد ، وروعوا الجيوش ، وملأوا القلوب أثــراً ، والأفواه خبراً والأرض عِبَرًا .

وكانت غزالة زوجة للقائد البطل " شبيب بن يزيــد " قائــد الخــوارج وبطلهم، والقائم بالأمر فيهم .. وكانت هى وزوجها يتناوبان قيادة الخوارج ، وكان الحجاج مبيد العراق وسفاك بنى أمية يستمع خبرها فيمتلئ قلبــه رعبــاً وهلعاً " .

وهنا يقاطع أحد الأقلام الفتية الشيخ المتحدث ويسأله : " وهل حدث فى أحد الأيام أن اصطدم الحجاج بغزالة ، أو اصطدمت غزالة به ؟ أم كان الحجاج يفر من أمامها فرار الحمل من الذئب اتقاءً لشرها " ؟ !

قال القلم معقباً : " ذات يوم خرج الحجاج فى جُنْــدِه ، وكلهــم شــاكى السلاح مستكمل العُدّة ، مرهوب الصَولة .. فعرضت له غزالة فى أربعيــن ، وهو فى أربعة آلاف ، فما لبث أن اختلط عليه الأمر ، وخُلِع قلبه من الفــزع ، وولى هاربًا يخلط فى قوله ، وهو أعرف الناس بمــواطن القــول ، وأرفقهــم

بأساليب الكلام ، ولكنه يا أبنائى عُقِلَ قلبـــه ، فعُقل لسانــــه ٠٠ وفى ذلك كتب عمران بن حطان إلى الحجاج ، وكان الحجاج قد لَجَ [1] فى طلبه :

أسـد عــلىَّ وفــى الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافـر
هلا برزت إلى غزالة فى الوغـى بل كان قلبك فى جناحى طائــر
صدعت غزالة جمعـه بعساكـر تركت كتائبــه كأمــس الدابــر

سكت القلم قليلاً ، كأنه يُلَمْلِم خيوط الماضى البعيد ، أو لعله يرتبها حسب وقوعها .. وفى سرعة ابتسم ابتسامة الساخر وقال : " وبلغ من جسارة غزالة الحرورية، التى أعتبرُها أنا كاتب التاريخ ، ويعتبرُها الكثير غيرى ، عفريتـة الحجاج سفاح بنى أمية، كما بلغ من قوة قلبها أنها أقسمت ذات يوم لتُصلّين فى مسجد الكوفة ركعتين ، تقرأ فى الأولى سورة البقرة ، وفى الثانية آل عمران ، والكوفة يومئذ معقل الحجاج ، ودار إمرته ، ومجتمع قوته " ٠

فى لهفة يقاطع أحد الأقلام الصغيرة المتحدث قائلاً : " وهل بَرَّت غزالة بالقسم يا شيخنا ، أم أن كليهما صار كالذى نسمعه هذه الأيام ، له قوة طلقـة الرصاص ، إلا أنه مع مرور الوقت يصير كالفقاعة التى تطفـو فـوق سـطح المــاء ، وسرعان ما تزول " ؟٠

---

[1] الأغانى ، ج١٦ ص ١٨ ٠

ينظر العجوز الشاب نظرة إعجاب إلى السائل ويقول لــه : " يــا أيهــا الصغير النابه ، بل أبَرَّت غزالة بالقسم ، ودخلت مسجد الكوفة هــى وزوجهــا شبيب بن يزيد ولبثت تصلى ركعتين تستنفدان نصف النهار ، ولما أُنبئ الحجاج بها ، تحصن فى قصره ، واستوثق من رتاج بيته ٠

وتحير شيطان بنى أمية فى أمر غزالة ، التى صارت همه الشاغل فــى الليل والنهار ، بل وفى حله وترحاله ٠٠ وسرعان ما هداه تفكيره الدموى الذى ألفه إلى خُطة ، لعلها هى التى تخلصه من غزالة إلى الأبد ، وهذا ما يصبو إليه هذا العشماوى المدعو الحجاج بن يوسف ٠٠ فإذا به يسرع فيرمــى غزالــة بخمسة جيوش ، وهى تلتهمهم إلتهاماً ، حتى أصبحت العراق ترتجف لاســمها وفى ذلك يقول أيمن بن خزيم [1] :

أتينا بهم مائــتى فــارس	مــن السافكين الحــــرام العبيطا
وهم مائتا ألف ذىٍّ فونسٍ	يئــط العراقــان منهم أطيطا (٢)
رأيت غزالة إن طَرَّحــتْ	بمكــة هــودجــها والغبيطا (٣)
سمت للعراقيــين جمعها	فــلاقى العراقان منها بطيطا (٤)
ألا يستحى الله أهل العراق	إن قلدوا الغانيات السموطـــــا

---

[1] الأغانى ، ج٢١ ص ٨ ٠

(٢) الفونس : أعلى بيضة الحديد، والأطيط :الصياح الممزوج بالأنين٠

(٣) الغبيط : الوحل ٠

(٤) البطيط : العجب٠

وخيل غزالة تسبى النساء وتحوى النهاب وتحوى النبيطا(١)

وانتهى المطاف بغزالة بالقتل فى موقعة الكوفة بخدعة ، عندما غافلتها فرقة من جند الحجاج من ورائها، بينما هى تخوض فى صدور جنده (٢).

أخذ شيخ الأقلام يدور ببصره فى وجوه جلسائه ، فلمــا رأى الــسعادة ترفرف عليها ، أدرك أن الحديث عن شجاعة النساء قد راق لصاحبه ولأبنائــه الأقلام ، فعقد العزم على أن يستزيدهم فقال : حدث ابن سعد عن أنس بن مالك أنه قال :

شهدت (أم سليم) موقعة (حنين) مع رسول الله – صلى الله عليــه وسلم – ومعها خنجر حزمته على وسطها ، وكانت يومئذ حاملاً بعبد الله بــن أبى طلحة ، فقــال أبو طلحة : يــارسول الله ، إن أم سلــيم معــها خنــجر ، فأسرعت هى فقالت : " يارسول الله أتخذه إن دنا منى أحد المشركين بَقَــرْتُ بطنه ، وأقتل به الطلقاء ، وأضــرب أعناقهــم إن انهزموا بك " .

فتبسم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال :"إن الله قد كفــى وأحسن" (٣)

---

(١) النبيط : جبل من الناس يسكنون البطائح من العراقيين.

(٢) ابن جرير ، ج٨ ، ص ٨٥٣٠ .

(٣) طبقات ابن سعد ، ج٧ ، ص ٣١٠ .

أما الجاحظ فروى قائلاً :

" كان (حبيب بن مسلمة الفهرى) رجلاً غَزَّاء للترك ، فخرج ذات مرة إلى بعض غزواته ، فقالت له امرأته : أين موعدك ؟ قال : سرادق الطاغية ، أو الجنة إن شاء الله تعالى ، قالت : " إنى لأرجو أن أسبقك إلى أى الموضعين كنت فيه ٠٠ فجاء فوجدها فى سرادق الطاغية تقاتل الترك " [١] .

سكت القلم ، وسرعان ما قال فى ودٍ : " إنما أردت أن أسوق ما سمعتموه منى الآن ؛ ليعرف صغيركم وكبيركم ، كم بلغ ثبات المرأة العربية فى ظل الإسلام ، ووفور ثقتها بنفسها ، واستمكانها من موقفها ٠٠ وعليكم أنتم أن تضعوا المرأة فى كل العصور فى الميزان ؛ لتدركوا أيها كانت تبحث عن الدين والجنة والمجد الحقيقى الذى فيه عزتها ، وأيُّها التى أفنت عمرها لتبحث عن وهم وسراب إن لم يفتك بها اليوم فلسوف يفتك بها فى الغد " ٠

---

(١) البيان والتبيين، ج٢ ، ص ١٤٣ ٠

القلم والزمان

سكت القلم وراح ينظرإلىَّ وكأنه يحثنى على الكلام ، فلما رآنى أنظر إلى الأفق البعيد وعلامات الحسرة تبدو على وجهى ، ارتعد ، واهتزت العصاة فـــى يده ، وسرعان ما بادرنى قائلاً : " وَيْحك ، ماذا يبكيك يا رجل بغير دموع كمـــا أراك الآن " ؟ .

رأيتنى أصرخ من أعماقى ، وفى لوعة أقول معقباً : " أســـتحلفك بـــالله الذى جعلنى إنساناً ، وجعلـــك قلمـــاً ، أن تصدقنـــى القـــول ، فيما حار فيـــه عقلـــى " .

قاطعنى القلم وراح يخفف عنى ، فقال فى بشر : " وما الذى حار فيـــه عقلك ياتُرى " ؟ .

قلت بصوت يتعثر من الضنى :" القلم رمز وأداة العلم والثقافة والتاريخ والتنوير ، وهو فى يد كل الدول من قديم الزمان إلى الآن ، ورغم ذلك نـــرى دولاً وصلت بالعلم ، وما يسطره القلم من فكر إلى عنان السماء ، وأخرى مـــا زالت تبحث عن الماء فى الصخرة الصماء ، أو بالأحرى ما زال يشغلها : هـــل الملائكة ذكور أم إناث ؟ ومَن خُلِق قبل مَن : البيضة أم الدجاجة " ؟.

أخذ القلم يُجيبنى وقد أشرقه الدمع ، وقطَّع صوته الأسى فقال : " القلم كالمال قد يشقى البعض ، وقد يكون سبب سعادة البعض الآخـــر .. والـــدول

كالأشخاص ، فإن جئنا بمجموعة من الدول المتقدمة ، وأخرى نامية ، وثالثة متخلفة ، وأشرنا بقلم، وسألنا كل فئة على حدة قائلين : " ما هذا " ؟.

سوف يأتيك الرد الفورى من فئة الدول المتقدمة يقول : " هذا قلم ، ثم يقومون فيحددون نوعه ؛ أَحِبرٌ هو أم جافٌ ، بعد ذلك يصفون شكله والغرض منه".

أما فئة الدول النامية فسوف تسمعها تقول : " هذا قلم ، وقد يكون عصاة ، وقد يكون عسلية " .

وأما الفئة الثالثة وهى فئة الدول المتخلفة ، فسوف تقول بلا تفكير : " هذا فيل " .

وإنما أردت أن أسوق إليك هذا المثال ؛ لتعرف كيف يكون الحكم على الأمور فى المجتمعات الثلاثة .. وعليك يا ربيب العلم أن تتنبه إلى حقيقة قد تكون خافية عليك وهى : " إن قمت فتركت المجتمعين الثانى والثالث لأمرهما ، وخَلّيتَ سبيلهما ، كان شأنهما كشأن دقائق الكنوز فى قفر من الأرض ، تتحول الأزمنة وتتبدل الأمم وهى على حالها ، لا خير فيها ولا أثر لها ".

أومأتُ برأسى مؤمناً على ما قاله القلم ، ولا أدرى لماذا رحت أسأل القلم مرة أخرى فى لهفة قائلاً : " قد يصل الحزن بالإنسان مبلغًا كبيرًا ، فإما أن تتحجر الدموع داخل عينيه ، وإما أن تسقط كالسيل الجارف .. ومن

الصعب عليه حينذاك أن يوقف هذا السيل بسهولة ، فهل حدث للصديق القلـم مثلما يحدث لنا ، أم أن الحزن والأسى من سمات بنى البشر فقط " ؟ .

اعتدل القلم فى جلسته ثم قال وهو يدعى السرور وما هو بمســرور : " يظن الإنسان أن الحزن والسرور خُلقا من أجله فقط ، والحقيقة أن كل مخلوقات الله تحزن .. فالشجرة لو بيدها لصرخت من شدة الألم الذى يسببه لها الإنسان عندما يقوم بقطعها دون وجه حق ، وهى تفرح عندما تنظر حولها فتجد أولادها الثمار يداعبون الهواء ، والهواء يداعبهم .

والحيوان يشعر بدفء الإنسان وبحبه ، خاصة إذا اقترب منه ومـسح على ناصيته ، ويشعر بالأسى وتلتمع عيناه بالدمع ويرتفع ضغطه ، إذا أحـس بقسوة المتعاملين معه.. ولعل الحصان والجمل العربيين خير شاهدين على ما أقول" .

توقف القلم الشيخ فجأة عن حديثه ، وإذا بى فى ودٍّ أنظر إلى عينيــه ، فإذا هما طافحتان بالحزن والابتهاج ، الذى يأتى ويذهب كل يوم مــع إشــراقة الشمس أو تلبد الغيوم .. أصابنى الهم وأنا أشاهد صديقى كاتب التاريخ يدير رأسه فى الاتجاه المقابل ، حتى لا أرى دمعه الساخن وهو يتساقط على محياه ، ولا أسمع همسه مع نفسه وهو يقول : " وَيْحَ الإنسان ، ماذا فعل بنفسه ؟ " .

ركبتنى الهموم وشعرت بالدنيا تدور من حولى ، وسرعان ما وجــدتنى أهتف من داخلى قائلاً : " لن أحتمل أن أرى دموع صاحبى القلم الساخنة تسيل على محياه، القطرة تلو القطرة ، وإن كنت أعتقد أن وراءها حدث عظيم ، وإنما

أراد القلم أن يحتبسه بداخله على غير عادته ٠٠ ولكن كيف ؟ وصديقى يمقت الكآبة والحزن، ودائماً ما أراه يواجه آلامه بالصبـــر ، فكيف أراه اليوم تعتلى وجهه مرارة اليائس من الناس ومن دنياهم ، وكأن بداخله صرخة أليمة لأمـــل خائب تكسرت عليه نِصَال الخيبة بعد الخيبة " ؟ !٠

نظر إلىَّ القلم وهو يتصنع الابتسام ورباطة الجأش ؛ كى يُـــذْهِب عنـــى الْهَم الذى تسرب إلى داخلى عندما رأيته على هذه الحال ٠٠ وسرعان ما نطق العجوز الشاب فقال : " لا تؤاخذنى على ما بدر منى ، فلقد تذكرت الأزمنة التى مرت بى ، فلما طاف بخاطرى زمانكم بكيت ؛ لأننى وجدت فيه أن القيم والمثل والمبادئ أصبحت أقل قيمة من تراب الأرض ، زمانكم أصبح فيه الإنسان أكثر غدراً من الذئاب والثعالب والثعابين ، ولا أخطئ إن قلت إن زمانكم أصبح زماناً مادياً كئيباً ، لذلك ترانى لا أقوى على الكتابـــة ؛ لأن كبريـــائى رفعـــت رايـــة العصيـــان ، وتضامنت معها يدى التى رفضت الكتابة "٠

فى وِدٍ قاطعت القلم المتحدث ، وفى أدب قلت له : " لا أرى غـــضاضة فيما نطق به لسانك الآن ، لكن إن أذنت لى قلت بلا مواربة : إن افترضـــنا أن الزمان ورقة ، فمن الذى يسطر عليهـــا الخطـــأ والـــصواب ، والحقائـــــق ، والأكاذيب ؟ إنهما الإنسان والقلم ، ولا ثالث لهما " ٠

انفرجت أسارير القلم الذى قال فى حميمية بلا رتـــوش ولا مقدمـــات : " أنت تشير إلىَّ بأصابع الاتهام فيما وصل إليه حـــال الـــبعض مـــن انحطـــاط

أخلاقـــى ، إنما جاء اتهامك لى واضحاً لإيمانك أنه لا علم بغير القلم ، أولَيس ما نطقت به هو ما يخجل لسانك عن التفوّه به " ؟ .

أومـــأت برأســـى وقلت فى خجل : نعم . عند ذلك قـــال القلـــم بنبـــرة حزينة: " لا أخفى عليك سراً أننى تخاذلت ، فكان إخفاقى فـــى القيـــام بالـــدور العلاجى فى تلك المجتمعات الفاسدة ، فمن الطبيعى أن تستشرى فيهـــا شـــتى الأمراض الخلقية والاجتمـــاعية.. حينـــذاك تحـــول ليلهـــم إلى ليلٍ دامسٍ ، وطريقـــهم إلى طريق طامس [1] .

وإن كنت فى شجاعةٍ أعترف بخطئى أمامكم ، فلا أُبَرئ ســـاحتكم أنـــتم أيضاً أصحاب الأقلام من مفكرين ومبدعين وعلماء ، عندما فضلتم الجرى وراء المجد والشهرة والمال ، وأغضيتم الطرف ، بل تناسيتم جوهر القضية ، فجاءت كتبكم وصحفكم جوفاء خالية من غذاء العقول والقلوب ، فَعَمَـــت الفوضـــى ، ووطئت الأقدام الأخلاق ، التى كنتم ذات يوم تباهون بها الأمم ".

تقدم أحد الأقلام الفتية من شيخ الأقلام وقال له مستفسراً : " يـــا أبانـــا الشيخ أشعر أن ثمة معنى أو مشهداً مازال بداخلك ، وأنك تـــدور حولـــه ، ولا تريد الإفصاح عنه ، لكنى أستحلفك بكل نقطة مداد سالت منك فى سبيل الحـــق والحرية ، أن تقص علينا هذا المشهد الذى كلما تذكرته أدمى فـــؤادك " ؟.

---

(١) الطريق الطامس : هو الطريق المتعرج .

اتسعت عينا الشيخ وأخذ يعبث بنظارته ، وكأنه يحثها على الإفصاح عما شاهدته ، وسرعان ما قال فى حدة : " عند الفجر قبيل بزوغ الشمس من وراء الشفق ، جلست وسط الحقل أناجى الطبيعة الجميلة ، والفجر يلفُها فــى حلــة نسجت من الأضواء .. كنت حينذاك مُتَوَسِّدًا الأعشاب .. وبينا أنا بين النوم واليقظة ، وصور الجمال من حولى تتغبش أمــام عينــى .. سمعت أصــواتاً ورأيت حركة غير عاديــة .. فرفعت رأسى كى أقف على حقيقة الأمر ، فــإذا بالشهامــة والمروءة تحمل كل منهما على ظهرها ما يحمله المسافر مــن زاد وزواد .. توجست خيفة ، واقتربت منهما وسألتهما قائلاً : " إلى أيــن أنتمــا ذاهبان " ؟ .

قالتا بنبرة الحزين الذى أجبروه على مغادرة الــوطن ، وهــو يعــشق ترابــه : " نبكى لأن الإنسان بات ينظر إلى بَهْرَجَة المرئيات ، وصــار يعــدو ويلهث وراء السراب ، بعدما طلقنا بالثلاثة .. والغريب أنه يدعى بين الفينــة والفينة أن زماننا قد ولى ، وأن المتمسك بنا كالقابض على الماء أو الهواء .. وهو الذى كان يجزم ويؤكد لنفسه وللآخرين : أن الذى لا يتحلى بنــا كالــذى يسيــر عُرْياناً على شاطئ البحر فى الشتاء القارس " .

ولا ندرى لماذا فعل الإنسان ذلك ؛ أأصيب بجنة ؟ أم هى نار التقليد ؟ أو لعله العمى الذى جعله يلقى بكل ما هو جميل فى غياهب الجب ، بعــدما قــرر السير فى الظلام الدامس ، بلا شمعة تجعله يرى موضع قدميه .. مسكين هذا الإنسان .

ولم يمض من الوقت غير القليل ، ورأيت الأخلاق تمشى تحـت جُـنْح الليـل ، وهى تبكى ، بل تَنوح كالثكلى ٠٠ أصابنى الهلع والخوف وأنا أشاهد الأخلاق على هذى الحال ٠٠ هرعت إليها وأنا لا أدرى أمازال قلبى يخفق بين جنبى أم فَضَّل الموت على أن يرى الأخلاق تَشُد رحالها ؟

وفى لهفة سألتها : " إلى أين أنت ذاهبة يا تاج الرؤوس ؟ " .

قالت فى جدية : " إلى أى مجتمع ، وإلى أى قوم يأنسون بى ويفرحون لقدومى " ، وإذا بها تشير إلى بعيد ٠٠ شعرت بالدوار يهز كيانى ، وفى ثورة على الإنسان وفى شفقةٍ عليها سألتها : ولماذا ؟

قالت : " لقد صار صفائى وزرًا ، وطهارتى قذرًا ، واسـتباح الإنـسان حرمتى ، واصطبرت عليه، حتى صرت حجراً يُلْقَى به بعيداً ، بل قام فمرغنـى فى الوحل عامدًا متعمدًا " .

رأيتنى فى هستيريا أقول والأخلاق تسمعُنى : " أين عقله ؟ أوَيدرى أنه لما سَوَلَت له نفسه الخبيثة أن يقتلعها من داخله على سبيل التقليد ، أو من باب التقدم كما يزعمون ، تحول إلى أعمى ، بل إلى ثور هـائج ، يقتـل ويـسفك الدمـاء ، فماذا لو استغنى عنها أكثر من ذلك " ؟!! .

سكت القلم قليلاً ، ثم قال مرة أخرى وهو يخفى دمعة حزينـة سـقطت على محياه : " وسرعان ما تنبهت لكلمات الأخلاق ، ورأيتنى أقول محدثاً نفسى بعد تفكير عميق : " كيف يدعها الإنسان ترحل وهى كالزرع ، بيده يفتك بهـا فتك المنجل للحشائش ، وبيده يجعلها كالأشجار الوارفة والمثمـرة ٠٠ فلمـا

سألتنى الأخلاق : كيف ؟ قلت لها : يا تاج الرؤوس ، القلم هو الأصل ، والتلفاز هو الساحر، والسينما هى الشيطان الرجيم ، بأيدى الثلاثة أن يمرغونـك فـى الوحل ، أو يلقون بك فى اليم ٠٠وبأيديهم أن يجعلوك الأميرة المتوجة ، وكيف لا ؟ والمتزين بك فى الدنيا هو أجمل وأحسن الناس ، والمتمـسك بـك حتـى الممات هو الفائز بالجنة" ٠

وانبلج نور الصبح ، واختفت الأخلاق ، ولا أدرى إلـى أيـن ذهبـت ، أمازالت بيننا ، أم فضلت الرحيل ؟ ولكن كيف ترحل وهى : المـاء والهـواء والشمس ؟ كيف تهجرنا والحياة لا تستقيم بدونها ؟ !!

حديث القلم

أخذت جميع الأقلام تنظر إلى شيخها ، وحلَّقت الطيور من كل نوع فـــى الفضاء القريب ، ولا أحد يدرى أجاءت هى الأخرى على عجل لتسمع حـــديث القلم ، أم اتخذت من نفسها فقط جنوداً تحرس الفضاء فى يوم الوفـــاء ، يـــوم تلاقى الأقلام الفتية وشقيقتها الطفلة بجدهم القلم .

اعتدل شيخ الأقلام فى جلسته وهَمَّ بالحديث وعلامات الـــسعادة تعلـــو وجهه ، وتتراقص وتلهو من حوله ، إلا أننى استوقفته لأغتنم الفرصة أمام هذا الحشد الكبير من الأقلام لأعبر عن صدق ومدى حبى الذى يزيـــد يومـــاً تلـــو الآخـــر للقلم، فإذا بى بلسان الحبيب أقول للقلم : " يـــاذا العفـــاف ، ياضـــمير العقول ، ياسيف الكاتب ، هلا سمحت لى أن أعلن على الأشـــهاد مـــن أبنـــاء الوطـــن ، بل العالم أجمع ، حبى لك ، فكم ضاق قلبى بـــه لكثرتـــه ، وحانـــت للسانى الفرصة لينطق به ، بل يزفه إليك ، فإن أذنت لى قلته بلا حـــرج ، وإلا توقفت عن الحديث من فورى " ؟.

اعتلى السرور وجه القلم ، فصار أكثر جمالاً ، وسرعان ما نظـــر إلـــىَّ وأومأ بالحديث ، عند ذلك انفرجـــت أساريـــرى واندفـــــع لسانـــــى يقـــول : " ياصاحبى ، لك فى نفس كل ذى عقل وبصيرة مكان عالٍ وغالٍ ، فـــلا يُنْكـــر أحدنا ولا من سبقونا فى الحياة ، أنك كاتب التـــاريخ ، ومُـــسَطِّر الحـــضارات التليـــدة ، فأنت الذى خلعت على الأوراق والرقاع الخصب والنماء المتمثل فى

الكلمات ، فصارت بكلماتك القلوب والعقول - بإذن الله - فى نعمـــة ، وخـــرج الشعراء والعلماء والأدباء من بين يديك ، بل من قلبك النابض بالحب ، يقذفونك تارة بثمار الشعر ، وتارة أخرى بشهد النثر ، فلما سألتهم وأنت تعرف ردهم : " أوَتحبوننى كل هذا الحب ؟ " ، هتفوا من أعماقهم وقالوا : " كيف لا ، ونحن الذين فتَّحنا عيوننا على هذه الحياة فرأيناك فى أيدينا وبجوار قلوبنا ، وعرفناك بسيطًا متواضعًا تحمل الحب والعطاء للجميع " .

فهلاَّ تحدثت اليوم معنا أيها الصديق العزيز عن اسمك ، وعن نشأتك ، وملامحك الأولى ، وعن هذا الحب الذى جمع بينك وبين محبين لك ، ســطروا أعذب الكلمات فى حقك ، فرحلوا هم ، إلا أن كلماتهم ما زالت تتناقلها الألسنة ؛ لأنها خرجت شفافة من القلوب فصدَّقتها الألسنة ، وحينذاك نطقت بها "؟ .

عَمَّ السكون المكان ، وتطاولت الأعناق تنظر فى لهفةٍ إلى القلم الذى بدأ حديثه فقال : " ما من شك أن معرفة الكتابة تُعد خطوة كبيرةً وعظيمة خطتهـــا البشرية وهى ما زالت تتحسس مواقع أقدامها على عتبات الحياة الطويلة .

وهذا يعنى أن الكتابة كانت فى الماضى البعيد - وما زالـــت - تعكـــس تاريخ الأحـــداث البشرية .. والذى أحب أن ألفت النظر إليه هو : أنه قد يكون للبشرية فى العصور السابقة للكتابة ، أحداث وتاريخ لا يقل كل منها فى أهميته عن تاريخ الكتابة الذى بين أيدينا الآن ، ومن يدرى لعل البشرية فى الأزمـــان الغابرة قد عرفت أنواعاً من الكتابات ، اندثرت وثائقهـــا ، أو فقدت لـــسبب لا

نعلمه ، والنتيجة ضياع أخبارها ورموزها ونقوشـــها وصـــورها ، كأنهـــا لـــم تكـــن " .

سكت القلم قليلاً وكأنه يلتقط أنفاسه ، حينذاك أسرع أحد الأقلام الصغيرة وقال : " الكتابة يا شيخنا ظاهرة إنسانية عامة قديمة العهد ، لجأ إليها الإنسان منذ أن عرف إنسانيته ، فماذا عن أطوارها الرئيسية التى مرت بها " ؟.

قال القلم : مرت الكتابة بأطوار رئيسية عديدة هى :

الطور الصورى : وفيه كانت ترسم المادة عيناً ، فإذا أراد مثلاً الإنسان القديم أن يرسل إلى إنسان آخر رسالة يقول فيها : إنه ذهب إلى صيد السمك ، يرسم صورة رجل بيده قصبة فى رأسها شص متجه نحـــو بحيـــرة .

الطور الرمزى : وهو الذى توصل فيه الإنسان إلى استنباط صور ترمز إلـــى المعنى كصورة الشمس المنبعث منها الضياء وتصلح أن تكون رمزاً للنهـــار ، وكذلك يمثل الجوع برسم رجل يده فى فمه .

الطور المقطعى : وهو بدء الكتابة بالفعل فى تهجئة كلمـــات لا علاقـــة لهـــا بالصورة ذاتها ، تماماً كما كان الأمر فى الكتابة البابلية والمصرية القديمـــة ، وهو(الصورة وأصواتها) ؛ أى أسماؤها ، لاستخدامها فـــى كتابـــة الكلمـــات والجمل ، وكل منها يكون مقطعاً وليس حرفاً .

بعد ذلك جاء الطور الصوتى : الذى لجأ فيه الكاتب إلى استخدام صور أشياء يتألف من هجائها الأول لفظ الكلمة المعنية ، وهى اتخاذ الصورة كرمز للهجاء

الأول، مثال ذلك : صورة الكلب ترمز إلى (ك) ، وصـــورة الغزالـــة ترمـــز إلـــى (غ) ، على نحو مـــا يدرسه الأطفال فى السنوات الأولى من التعليـــم : أ= أرنب ، و ب = بقرة وهكذا ٠

<u>الطور الهجائى</u> : عندما اشتدت حاجة البشرية إلى التقدم أكثر لتعلم الكتابة فى وادى الرافدين عند السومريين [1]٠

وما أن وصل الحديث إلى هذه النقطة حتى رأيتنى أنظر إلى القلم نظرة حب ، حينذاك ابتســم وأدرك من فوره أن بداخلى كلمات أسعى لإضافتها فـــى الموضوع ذاته ، فلما أشار إلىَّ قلت : " علينا ألا ننسى أن الإنسان الأول مكث قروناً لم يعرف الكتابة لعدم حاجته إليها ، وكيف يحتاج إليها من يسكن الكهوف والغابات ، وترتعد أوصاله من سماع أى صـــوت ، حتـــى وإن كـــان حفيـــف الأشجـــار ؟ كيف يحتاجها من كان كل همه فى الحيـــاة هـــو الحـــصول علـــى القـــوت ؟ " ٠

وفى حميمية أُعلن الآن أمام صديقى القلم وأمامكم : " أن الكتابة اللغوية كانت الحدث المعجزة الذى ميز الإنسان المتحـــضر عـــن جماعـــات الإنـــسان البدائيـــة" ، ولعلى أميل إلى الرأى الذى يقول : " إذا كان الحيوان الناطق هـــو الإنسان فحسب ، فإن الحيوان الكاتب هو الإنسان المتحضر" ٠

---

[1] منظور الخط العربى ، ناجى زين الدين ، الطبعة الأولى ، عام ١٩٦٨ ، ص ٢٩٥ ٠

قاطعنى القلم وقال مؤيداً وعلامات السرور على وجهه : " إن اســـتخدام الإنسان للكتابة كان عنوان سعادته .. وليس معنى هذا أن اســـتعمال الكتابـــة حديث، بل هو من الاختراعات الإنسانية الموغلة فى القدم التى هدى الله تعالى الإنسان إليها ، وهو وإن اتفقنا على تسميته اختراعاً فعلينا أن نقـــول إحقاقـــاً للحق وللتاريخ : " أنه لم يتم طفرة أو بمحض الصدفـــة ، وإنمـــا استغـــرق تطويـــره عصوراً طويلة وأسهمت فيه شعوب كثيـــرة " .

بادر أحد الأقلام الفتية شيخ الأقلام قائلاً : " أيها الشيخ الوقور ، سمعت وقرأت فى نشأة الخط العربى كلاماً كثيراً ، قيل إنه من آراء العـــرب ، لـــو سمحت لى أن أُلَخصَه فى رأيين قد يلقيان استحساناً عنـــد الـــبعض ، وقـــد لا يلاقيان استحساناً عند البعض الآخر، ولكن الأمانة تقتضى أن نذكرهما فى هذا العُرس " .

<u>الرأى الأول يقول</u> : إن الخط توقيف من الله ؛ أى أنه ليس من صنع البشر ، علمه الله سبحانه وتعالى لآدم عليه السلام ، فقام آدم فكتب الكتب كلها .. فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم الكتابة التى يكتبونها وكان الكتاب العربى من نصيب سيدنا إسماعيل عليه السلام [1] .

---

(١) مرتضى الزبيدى ، حكمة الإشراق / ص٣ ، وانظر أيضاً د. مجـــدى مجاهـــد توفيـــق ، الخط العربى وأدوات الكتابة ، ص ١٢ .

والرأى الثانى يقول : إن الخط اختراع ، والحجة وراء هذا الرأى تقول : إن العرب أخذوا خطهم عن الحيرة ، والحيرة أخذته عن الأنبار ، والأنبار عن اليمن.

عقب شيخ الأقلام على حديث المتكلم قائلاً : " أياً كان الرأى يا بنى ، فليعلم حاضرنا وغائبنا أن الكتابة لم تأت فى يوم وليلة ، كما يتصور ويتوهم البعض ، بل وراءها مجهود عظيم وحقب ودهور وسنوات طويلة " .

رأيتنى اقترب من القلم ، وفى همس الأحباب قلت له : " صناعة القلم هى أفضل الصنائع ، وأجلّ البضائع .. وقيل لا يسمى قلماً حتى يُبرى ، وإلا فهو قصبة، ولا يقال للرمح رُمْح إلا وعليه سنان ، ولا يقال مائدة إلا وعليها طعام وإلا فهى خوان ، ولا يقال كأس إلا إذا كان فيه شراب ، وإلا فهو زجاجة ، فيا لسان البصر ويا مطية الفكر ، ليتك تقصّ على أسماعنا بعضاً مما قيل فى بَرْى الأقلام ".

اعتدل القلم فى جلسته وعاد إلى الوراء قائلاً فى ودٍ : " القلم البوص " هو أحد أشكالى فى مرحلة الشباب ، ولا أعتقد أن شباب اليوم يعرفونه ، بل يعرفه سكان القرى والنجوع والكفور والأحياء البلدية ، الذين عاشوا حقبتى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين ؛ لأن معظمهم التحق بكُتاب القرية أو كُتاب الحى ، حيث كان يُكْتَب فيه بالقلم والدواة على لوح الارتواز" .

وهنا يقاطع أحد الصغار الشيخ ويسأله قائلاً : " وكيف كان هذا القلم يُخْتار ياجدنا " ؟ يرد القلم قائلاً : " كان يُخْتار من الأنابيب (القصب) أقومها

عقداً ، وأدقها قشراً ، وأعدلها استواء ، ويختار ما لا يكون شديد الصلابة ولا رخواً فى الغابة ، بل يكون بينهما ، ولا يكون معوجاً ولا مفتولاً "٠

وعامة كان الاختيار فى الغلظ والدقة حسب الخط ، فإن كنت تريد كتابة الخط الرفيع فعليك بالقلم الدقيق ، وإن أردت الكتابة بالخط السميك ، فعليك بالقلم الغليظ ، ولأجل هذا قال أحد جهابذة هذه الصناعة " لا تظلموا الأقلام " ، قيل : وما ظلمها ؟ قال : " أن تكتب بالقلم الدقيق الخط الغليظ ، والعكس بالعكس " ٠

عندئذ تقدم أحد الأقلام الفتية من الشيخ المتحدث وسأله فقال : " أوتُعد براية الأقلام فناً ، أم يقدر عليها أى إنسان ، كما كان يفعل الأطفال فى الكُتَّاب فى الزمن المنقضى ؟ " ٠

فابتسم القلم وردّ على السائل وهو يعتدل فى جلسته : " لا ، بل كانت فنًا يتفاوت بين إنسان وآخر ، ودليل ذلك أن بعض الخطاطين كان إذا أراد أن يبْرِى قلمه توارى حتى لا يراه أحد ؛ حيث أنهم كانوا يعتبرون أن ذلك سر المهنة ، ولنفس السبب كان النصارى من الكُتَّاب إذا أراد أحدهم أن يبْرِى قلماً له فعل ذلك ، وإذا أراد أن يقوم من الديوان قطع رؤوس الأقلام ، أى أتلف البراية ، حتى لا يقلدها أحد ، وقال البعض فى هذا الشأن : " تَعَلُم البراية أكبر من تَعَلُم الخط "٠

وقال ابن العفيف: " فساد البراية من بلادة السكين ، وقال بعضهم : جودة البراية نصف الخط " ٠

وقال فى موضع آخر : " إذا طالت البراية جاء الخط بها أخف ، وأضعف وأحلى ، وإذا قصرت جاء الخط أصغر وأثقل وأقوى " .

وقال ابن البربرى : " إياك والخرف فى البراية ، وترك تجويدها ، فمن فسدت آلته فسد عمله " .

نظر شيخ الأقلام فشاهد صغيراً يتطاول بعنقه من بين الصفوف ، فأدرك بخبرة من حلب الدهر أشطره أن لديه سؤالاً يريد أن يطرحه عليه ، حينذاك أشار له قائلاً : " هات ما عندك " ، فقال الصغير : " وماذا عن قطّ القلم ، وماذا عن قلمى التوقيع والرقاع ؟ " .

طال صمت الشيخ قليلاً ، وكأنه يقلب صفحات الماضى ، بل صفحات عقله ، إلا أنه سرعان ما قال : " كلنا نعلم أن أهم آلات الكتابة جودة القلم وصحة بَرْيه ، فإذا اعتبرنا ذلك غاية ، فعلينا معرفة كيفية قَطّ القلم [1] ؛ إذ بها تظهر محاسن الكتَابة، إذا كانت صحيحة ، وابن أيوب – رحمة الله عليه – لم يبح بسر القَطَة ، بل رمز إليها بقوله: " القَطَة بين تحوير إلى تدوير" .

وعلينا أن نعلم أن القطّ المحرف يُظْهر الفركات فى الكتابة ، والفَرْكة رِقَة الزاوية .. والمحرف يرق المنتصبات كالألف ورأس اللام ، لذلك قيل :

---

[1] قط القلم : أى قطعه ، وهو أنواع منها ، المحرف ، المستوى ، المائل ، القائم ، والمصوب ، وأجودها المحرفة المعتدلة التحريف ، وأفسدها المستوى .

فإن شئت ريحاناً قططت محرفاً ... ليظهـر فـرك زوايـــاه إذ تثـنى
يرق به ما كان كالأسل ارتـوى ... فيسلم فى فسخ البياض من الطعـن
ولو طمسوا فيه وقل بياضـــه ... لأصبح فى الإظلام كالغيم ذى المزن
لأن بــه إعرابـــه فكأنـــه ... حروف ، فما التدوير فى مثله يغنى

وأما المدور فيختص بقلم الرقاع والتوقيع ، وهما عكس المحقــق والريحان ، وفيهما قال ابن الوحيد :

ودّور إذا شئت الرقاع لأنه ... يخص لمنع الشكل بالجمع والثخن
ووفر له شحم البراءة ساتراً ... بــه الفرك كالمدفون يستر بالدفن
فريحاننا ضد الرقاع وإنـــنا ... نباعد عنه ما إلى ضده فدنـــى [1]

يتنهد القلم فتخرج من فيه زفرة ، هى أشبه بزفرة الألم التى تخرج من فم الإنسان حالة ضيقه وتبرمه ، عند ذلك ابتسمت وقلت له مداعباً : أوَتتحسر ياصديقى العجوز الشاب والشاب العجوز على الشباب الذى ولى ، وتقول بينك وبين نفسك ما يقول الإنسان عندما يتذكر شبابه فى هَرِمه :

ألا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل المشيب

---

[1] منظور الخط العربى ، ناجى زين الدين ، مكتبة النهضة – بغداد – الطبعة الأولى ١٩٦٨ ، ص ٣٤٣ .

يقهقه القلم ويعود بظهره إلى الوراء ثم يقول فى فرحة مداعباً هو الآخر ومعقباً : "إن كنتم أنتم فى عالم البشر تَهْرِمُون وتَشِيخون ، فـنحن الأقـلام لا نَهْرم ولا نَشِيخ " .

ما إن أتم القلم كلماته ، إلا وأسرع إليه أحد الصغار يسأله قـائلاً فـى دهشة : " كيف يا شيخنا وكل مخلوقات الله تَهْرم وتَشِيخ وتموت" ؟!!

فى جدية يعقب القلم قائلاً : " بالحقائق الدامغة والظواهر ، وإيماننا بالله واليوم الآخر ، فكل مخلوقات الله تهرم وتشيخ وتمـوت ، وبالعقـل والمنطـق فالأقلام والكتاب لا يموتون ، وقد يسألنى أحدكم : كيف ؟ أقول يموت الكاتـب ويُقْبَر ، وما زالت كتبه بعد مئات السنين تُقـرأ وتُـدرس ، إذاً المـوت هھنـا بالجسـد ، أما العلم النافع فلا يموت، وكذلك الأقلام لا تموت ، ولكن بعـضها يتوقف عن نشاطه ، أو بالأحرى يسلم نشاطه لغيره ، لكنه موجود ، ودليل ذلك أنك فى أى وقت وفى أى زمان تستطيع أن تستحضر القلم الريـشة ، والقلـم البوص ، والأقلام الأخرى التى لا تستعمل الآن ".

وقد يخرج من بيننا من يقول : " معنى هـذا أنهـم ماتـوا " ، أقـول : " الثمار تولد كل عام وتموت فى العام نفسه ، لتحيا مرة أخـرى فـى العـام المقبل ، والشجرة ههنا – وهى أم الثمار – تقوم بدور المداد ، فكلمـا زودت الشجرة الثمار بمداد الحياة، دَبَّت الحياة فى أجساد الثمار ونمـت ونـضجت ، والعكس صحيح ".

ثم يصمت القلم قليلاً ، وسرعان ما يقول فى حماسة : " ولوعدنا للإجابة عن النصف الثانى من السؤال الأصلى لقلنا : إن قلم التوقيـــع ، سُـــمى بهـــذا الاســـم ؛ لأن الخلفاء والوزراء كانوا يوقعون به ، وهو نوعان :

النوع الأول : وهـــو قلـــم التوقيـــع المطلق ، الذى يكتب به فـــى قطــــــع الثلـــث .. سماه " الفضل ابن هارون" (القلم الرياسى) ، وقواعـــد حروفـــه وأوضاعه فى الأصل قواعد الثلث ، إلا أنه يخالفه فى أمور : أحدهما أن قطته إلى التدوير أميل ، بخلاف الثلث فإن قطته إلى التحريف أميل ، والصورة الثانية أن حروفه إلى التقوير أَمْيَل من الثلث .

النوع الثانى : هو قلم الرقاع ، وهو من الأقلام القديمة التى اســـتعملت فـــى ديوان الإنشاء ، والمراد بالرقعة الورقة الصغيرة التى تكتب فيها المكاتبات وما فى حكمها .

عمّ السكون المكان على غير العادة ، وكأن كل واحدٍ من الحضور يفكر فى سؤال يريد أن يطرحه على القلم ، ولعلهم ظنوا أن أبـــاهم الـــشيخ يلـــتقط أنفاسه ، ثم يعود مرة أخرى للحديث .. لكننى فطنت لما بينى وبين صـــديقى القلم من مودة ، أنه ينتظر أن يطرح عليه أحدنا سؤالاً .

اعتدلت فى جلستى وقلت له سائلاً بحميمية الأصدقاء : " لكل مخلـــوق أصدقاء وأعداء ، حتى وإن كان رسولاً نبياً ، ومن طبيعة الأصـــدقاء الوفـــاء والصدق فى القول " ، فلئن سألتك الآن : " ماذا قال عنك الأصدقاء الذين يكنون لك الحب ، ويعرفون حق قدرك " ؟.

فى حزمٍ وجديةٍ عقّب القلم على السؤال قائلاً : " القلم كالإنسان يستطيع أن يستشف الصدق ويميز بينه وبين الرِيَاء ، ولكنه على النقــيض يعطـــى ولا ينتظر المقابل ، فكل الذى ينتظره القلم هى كلمة حب يشعر معها بالدفء ، لذلك سوف أستفرغ الآن كل ما فى قلبى وعقلى من كلمات شفيفة ، كم أسعدتنى حين رأيتها وسمعتها ، وما زالت تسعدنى حتى الآن ، وسوف أبدؤها بوصف أعرابى لى ، وهو لم يرنى ولم أره " .

قيل لأعرابـــى مـــا القلـــم ؟ : ففكّـــر كثيـــراً ، وقلب يـــده ، ثـــم قال : " لا أدرى " ، فقيـــل له : تخيله : فقال : " هو عود ، قلم من جوانبه كتقلـــيم الظفر ، فسميت قلماً" [1] .

وقيل : " القلم لسان البصر ، ومطية الفكر ، وبالقلم تزف بنات النقـــول إلى خدور الكتب " .

وقال العتابى : " ببكاء الأقلام تضحك الصحف " .

وقال ابن حماد : " القلم للكاتب كالسيف للشجاع " .

وقال الضحاك : " يامن تعاطى الكتابة اجمع عند ضربك بالقلم ، فإنما هو عقلك تظهره " .

---

[1] صبح الأعشى، القلقشندى ، ج٢ ، ص ٤٣٥ .

وقـــال ابن أبى داود : " القلم سفير العقل ورسوله ولسانه الأطول وترجمانه الأفضل " .

وقال طريح بن اسماعيل الثقفى : " عقول الرجال تحت أسنان أقلامها " .

وقال العتابى : " ببكاء الأقلام تبتسم الكتب " .

وقال عبد الحميد : " القلم شجرة ثمارها الألفــاظ ، والفكــر بحــر لؤلــؤه الحكمــة ، وفيه رى العقول الظمئة " .

وقال القلقشندى : " واعلم أن القلم أشرف آلات الكتابة وأعلاها رتبة ، إذ هو المباشر للكتابة دون غيره ، وغيره من آلات الكتابة كالألوان " .

ولله قول أبى الفتح البستى :

إذا أقسم الأبطال يوماً بسيفهم	وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب عزاً ورفعــةً	مدى الدهر أن الله أقسم بالقلــم

وقال جعفر بن يحيى: " لم أر باكياً أحسن تبسماً من القلم " .

وقال ابن المعتز : " القلم مجهز جيوش الكلام ، تخدمه الإرادة ، ولا يمل مــن الاستزادة ، كأنه يقبل بساط سلطان ، أو يفتح نور بستان [1] " .

---

[1] الخط العربى وأدوات الكتابة ، د.مجاهد توفيق الجندى ، الطبعة الثانية ،١٩٩٣ ، ص ٩٦ .

ثم يبتسم القلم وهو يقول : " وما أجمل ما قاله أبى حفص الأندلسى حين قال: "ما أعجب شأن القلم ، يشرب ظلمةً ويلفظ نوراً "!

ومن وصايا إبراهيم بن العباس لغلام بين يديه يعلمه الخط : " ليكن قلمك صُلْباً بين الدقة والغلظ ، ولا تبره عند عقده ، فإن فيه تعقيد الأمور، ولا تكتب بقلم ملتوٍ ، ولا ذى شق غير ملتو ، واختر من الأقلام ما يميل إلى السمرة " .

وقال البعض فى القلم :

وذى عفاف راكع ساجد	أخو صلاح دمعه جـــارى
ملازم الخمس لأوقاتـــها	مجتهداً فى طاعة البـارى

وقال سهيل بن هارون : " القلم أنف الضمير ، إذا رعـف(خرج مـن أنفه الدم) أعلن أسراره وأبان آثاره وأشاع أخباره " .

وقال إبراهيم ابن العباس الصولى : أطل خرطوم قلمك وأنشد يقول :

كأنوف الطير فى عرصاتها	خراطيم أقلام تخط وتعجم [1]

---

[1] صبح الأعشى للقلقشندى ، ج٢ ص ٤٥٩ .

القلم يكتب والحياة تلبس
ثوبها الجديد

رأيت أن الأقلام الصغيرة وشقيقتها الشابة لا تريد أن يتوقف حديث أبيها الشيخ عن تاريخه ، وعن صولاته وجولاته هنا وهناك ، قبل الإسلام وبعده .. ولا أخفى عليكم أننى أيضاً أتوق لذلك ، ربما لأنى أعلم أنه عندما يكتب القلم ، أو ينتشر خطه – أى علمه – تسير الحياة بعد سُبات عميــق ، أو بــالأحرى تلبس ثوبها الجديد، الذى لا شك أنه يضفى السعادة على القلوب .. ولا أحسب إلا أن سعادة القلوب هى سعادة الدنيا كلها .

اقتربــتُ مــن القلــم ، وفى حنــوّ بالــغ ربــتُّ على جســده ، وفــى ودٍّ قلت له : " يا أبا الأقلام ، يا كاتب التاريخ ، يا صديق الصفوة والأخيار على مر العصور : يدرك كل باحثٍ عن الحقيقة ، وعن مولدك ، أن صناعة الخط قبل الإسلام كانت موجودة ، إلا أن عدد الذين كانوا يعرفونها ، سواء فى مكــة أو المدينــة ، ثُلة قليــلة لا يتجاوز أفرادها عدد الأصابع .. لهذا همس التاريخ فى أذنيك ، فقمت فسجلت أسماءهم ، كذلك تجدنى فى غاية الشوق إن حــدثتنا الآن عن نشأة الخط ، وبدء تداوله فى بلاد الحجاز " ؟

كم كانت سعادة القلم الكبيرة بسؤالى ، ربما لأننى ذكّرته بالزمن الجميل الذى كان الإنسان فيه يحاول ، دون أن يتطرق إلى داخله اليأس قدر أنملــة ، كما هو الآن ، وربما لأن سؤالى سيجعله كمخلوق يتحدث عن نفسه من بــاب

حب الذات أو التعالى ، لا ٠٠ لا أحسب أن صديقى القلم يفعل ذلك ، أو يطمح إليه ذات يوم ، لأنه مُسيراً وليس مُخيراً ٠٠ ولكن الذى أدريه ، ويدريه كل صاحب علم أو فن ، هو أن سعادة القلم تكمن فى العطاء ؛ لأنه لا يعرف البُخل والشُح والتقتير الذى انتشر بطريقة عشوائية كسحب الدخان بين بنى البشر ٠

اعتدل القلم فى جلسته ، وبصوت يمتزج بالسعادة قال : " اجتمع ثلاثة نفر من طيء ، "ببقة" [١] ، وهم : (مرار بن مرة) ، (أسلم بن سدرة) ، (عامر بن جدرة) ، فوضعوا الخط ، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية ، فتعلمه منهم قوم من الأنبار [٢] ، ثم أهل الحيرة [٣] من أهل الأنبار ٠٠ وكان بشر بن عبد الملك أخو صاحب دومة الجندل [٤] يأتى الحيرة فيقيم بها حيناً ٠

---

[١] بقة : اسم موضع قريب من الحيرة ٠

[٢] الأنبار : مدينة على الفرات غربى بغداد ، كان أول من عمرها ذى الاكتاف المعروف باسم (سابو بن هرمز) ٠

[٣] الحيرة : مدينة بالكوفة ، كانت سكن ملوك العرب فى الجاهلية ٠

[٤] دومة الجندل : مدينة تقع على سبع مراحل من دمشق ، معجم البلدان / ج٢ ، ص ٤٨٧ ٠

تعلم بشر الخط العربى من أهل الحيرة ، ثم أتى مكة فى بعض شأنه ، فرآه (سفيان بن أمية بن عبد شمس) ، و(أبو قيس بن مناف بن زهرة بن كلاب) يكتب ، فسألاه ، بل طلبا منه أن يعلمهما الخط ، فعلمهما الهجاء ، ثم أراهما الخط فكتبا ٠

ثم إن الرجال الثلاثة أتوا الطائف فى تجارة لهم ، فصحبهم (غيلان بن مسلمة الثقفى) ، فتعلم منهم الخط ٠٠ وسرعان ما فارقهم بشر على ديار " مضر" [١] ، فتعلم الخط منه (عمرو بن زرارة بن عدس) ، ثم أتى بشر الشام ، فتعلم الخط منه بعض ناس هناك [٢] ، وتعلم الخط من الثلاثة الطائيين ، رجلٌ من" طابخة كلب"[٣]، فعلمه رجلاً من أهل وادى القرى ، فأتى الوادى يتردد ، فأقام به وعلم الخط بعضاً من أهله " [٤] ٠

سكت شيخ الأقلام عن الكلام ، وراح يتفرس وجوه أبنائه الأقلام ، وكأنه يحثهم على السؤال ، وما فتئ أن رأى قلماً يشرئب بعنقه ، فأشار إليه فى بشر أن يلقى عليه بسؤاله ، حينذاك قال القلم الشاب سائلاً : " لعلك يا شيخنا تحفظ

---

[١] مضر : منطقة فى جزيرة العرب ما بين النهرين ٠

[٢] حديث أحمد بن يحيى البلاذرى ، المؤرخ والجغرافى ، معجم الأعلام ، ج١ ، ص ٢٦٧ ٠

[٣] طابخة كلب : إحدى البطون العربية العدنانية ٠

[٤] فتوح البلدان ، للبلاذرى ، تحقيق : رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ، ص ٤٥٦،٤٥٧ ٠

عن ظهر قلب أسماء الكتَبة من قريش قبل الإسلام " ؟ .. سكت القلم السائل قليلاً ، وقال مداعباً مرة أخرى : " ولكنك قد لا تدرى أن السعادة قد تحف بنا وتغمرنا ، إذا ذكرتهم لنا الآن ، فهل أنت فاعل ؟ " .

وأنت إذا طالعت وجه صديقى القلم ، لوجدته من فرط سعادته ، وكأن البدر أشرق على وجهه ، ولكنك لا تدرى سبب ذلك ، أهو السؤال نفسه ، أم لأن لسانه بعد لحظات سوف ينطق بأسماء ، حُفِر فى قلوبنا حبها مرتين ؛ الأولى : لأنهم وهبوا حياتهم لخدمة الإسلام ، والثانية : لأنهم أصحاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – .

اعتدل القلم فى جلسته وقال فى سرور : " دخل الإسلام وفى قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب وهم :

١- عمر بن الخطاب .　　　٢- على بن أبى طالب .

٣- عثمان بن عفان .　　　٤- أبو عبيدة بن الجراح.

٥،٦- طلحة ويزيد(ابنا أبى سفيان).　　　٧- أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة .

٨- حاطب بن عمرو العامرى.　　　٩- أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى [1]

---

[1] أبو سلمة عبد الأسد المخزومى : هو عبد الله بن عبد الأسد المخزومى ، من السابقين إلى الإسلام ، وهو ابن عمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، كان معروفا قبل الإسلام بإصابة الرأى ، قال عنه ابن إسحاق : أسلم بعد عشرة أنفس ، وكان أخاً للنبى فى الرضاعة – الإصابة ، ج٤ ، ص١٥٢ ، رقم :٤٧٨٦ .

١٠- أبان بن سعيد بن العاصى.
١١- خالد بن سعيد بن العاصى.
١٢- عبد الله بن سعد بن أبى سرح.
١٣- حويطب بن عبد العزى [١].
١٤- أبو سفيان بن حرب.
١٥- معاوية بن أبى سفيان .
١٦- جهيم بن الصلت[٢].
١٧- العلاء بن الحضرمى [٣] .

تقدم أحد الأقلام الصغيرة ، فلما وقف أمام القلم الشيخ قال وقد انفرجت أساريره: " حدثتنا عن الرجال ، ولم تحدثنا عن النساء اللاتى كُنَّ يعرفن القراءة والكتابة قبل ظهور الإسلام ، فهلا حدثتنا عنهم الآن ؟ " .

قال الشيخ فى دعابة معقباً : " وما يدريك يا بنى ، أننى لم أكن أنوى الحديث عن المرأة ، وهى أحد طرفى الحياة ، أوتريد أن يحزن صديقنا منا ، وهو الذى ينادى دائماً بأن المرأة لها دور وشأو عظيم فى الحياة ، خاصة إن كان الرجل فى قلبها وعقلها ، وكانت هى فى عين الرجل وفى قلبه ".

---

(١) حويطب بن عبد العزى : هو حويطب بن عبد العزى بن أبى قيس القرشى ، أسلم عام الفتح ، وشهد حنيناً، وكان من المؤلفة قلوبهم ، مات سنة أربع وخمسين من الهجرة ، الإصابة ، ج٢ ، ص ١٤٣ .

(٢) جهيم بن الصلت : هو جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، قال عنه ابن سعد : أسلم بعد الفتح ، ولا أعلم له رواية ، وقال عنه أبو عمر : أسلم عام خيبر ، الإصابة، ج١ ، ص ٥٢٤ ، رقم ١٢٥٨ .

(٣) العلاء بن الحضرمى : هو عبد الله بن عماد بن عويف الحضرمى ، استعمله النبى – صلى الله عليه وسلم – على البحرين ، وكان مستجاب الدعوة ، مات سنة أربع عشرة من الهجرة ، الإصابة ، ج٤ ، ص ٥٤١ .

فلما قال له الصغير أنه يعلم ذلك ، استطرد الشيخ : " كان عـــدد النـــساء اللاتى يعرفن القراءة والكتابة قبل الإسلام قليل هو الآخر ، وهُنَّ :

١- الشفاء بنت عبد الله العدوية [١] .

٢- حفصة زوج النبى – صلى الله عليه وسلم – كانت تكتب .

٣- أم سلمة زوج النبى – صلى الله عليه وسلم – كانت تقرأ ولا تكتب .

٤- عائشة زوج النبى – صلى الله عليه وسلم – كانت تقرأ المصحف ، ولا تكتب .

٥- أم كلثوم بنت عقبة ، كانت تكتب .

٦- عائشة بنت سعد ، كانت تكتب .

٧- كريمة بنت المقداد ، كانت تكتب [٢] .

هذا بالنسبة لأهل مكة .. أما بالنسبة لأهل المدينة ، فكان بينهم أهـــل الكتاب من اليهود ، وكانت القراءة والكتابة معروفة بينهم ؛ ربمـــا لحـــاجتهم الماسة إلى معرفة كتابهم ، وما فيه من طقوس وأحكام .

---

[١] هى الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس القريـــشية العدويـــة ، مـــن عقـــلاء النـــساء وفضلياتهم ، أسلمت قبل الهجرة وبايعت ، كان النبى يزورها فى بيتها ، وكـــان عمـــر يقدمها فى الرأى ويرعاها ، وربما ولاها شيئاً من أمر الـــســـوق ، الإصـــــابة ، ج٧ ، ص ٧٢٧ ، رقم ١١٣٧٣ .

[٢] هى كريمة بنت المقداد بن الأسود الكندية ، روت عن أمها " ضـــباعة بنـــت الزبيـــر " وروى عنها زوجها "عبد الله بن زمعة" وابنتها ، وروى لها أبـــو داود وابـــن ماجـــة ، تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلانى ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ ، ج١٢ ، ص ٤٧٤ .

وقد دخل الرسول – صلى الله عليه وسلم – المدينة وفيها يهودى يُعَلِّم الصبيان الكتابة .. وكان فيها بضعة عشر رجلاً يحذقون الكتابة ، منهم : المنذر بن عمرو، وأُبى بن وهب ، وعمرو بن سعيد ، وزيد بن ثابت ، الذى تعلم كتاب اليهود بأمر من النبى " [١] .

فى حفاوة وجدتنى أنظر إلى صديقى القلم وأقول : " لقد حفلت كتب التاريخ بأسماء كتّاب الوحى الإلهى ، والعهود ، ودفاتر الصدقات والغنائم والأخماس ، والرسائل ، التى كان يرسلها الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى البلدان ، هذا بجانب رسائل الملوك ، فيا ليتك تحدثنا عمن عهدت إليهم هذه الأعمال من الصحابة – رضوان الله عليهم- " .

هز القلم رأسه علامة الموافقة وسرعان ما قال : " كان كتّاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذين يكتبون الوحى والكتب والعهود هم : على بن أبى طالب ، عثمان بن عفان ، عمرو بن العاص ، معاوية بن أبى سفيان ، شرحبيل بن حسنة [٢] ، عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، المغيرة بن شعبة ، معاذ بن جبل ، زيد بن ثابت ، حنظلة بن الربيع ، وأُبَىُّ بن كعب ، وجهيم بن الصلت ، والحصين النميرى .

---

[١] مناهل العرفان ، ج١ ، ص ٢٥١ .

[٢] شرحبيل بن حسنة ، أبوه هو : عبد الله بن المطاع بن عبد الله الغطريف ، مات شرحبيل فى طاعون عمواس ، الإصابة ، ج٣ ، ص ٣٢٨ .

وكان العمل ينظم بين هؤلاء الصحابة كالآتى :

- خالد بن سعيد بن العاص ، يكتب بين يدى الرسول فى سائر ما يعرض من أموره ٠
- والمغيرة بن شعبة والحصين بن نمير ، يكتبان فيما يعرض من حوائج النبى – صلى الله عليه وسلم – ٠
- وعبد الله بن الأرقم ، والعلاء بن عقبة [١] ، يكتبان بين الناس المـداينات وسائر العقود والمعاملات ٠
- والزبير بن العوام ، وجهيم بن الصلت ، يكتبان أموال الصدقات ٠
- وحذيفة بن اليمان ، يكتب خرْصَ الحجاز [٢] .
- ومعيقب بن أبى فاطمة الدوسى ، يكتب مغانم الرسول ، وكان يترجم للنبى بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية ٠

– وكان حنظلة بن الربيع ، يكتب فى جل هذه الأمور ، إذا غاب من سمينا من الصحابة من الكُتاب – رضوان الله عليهم – ينوب عنهم فى سائر ما يتفرد به كل واحد منهم ٠

---

[١] الإصابة ، ج٤ ، ص ٥٤٣ ٠

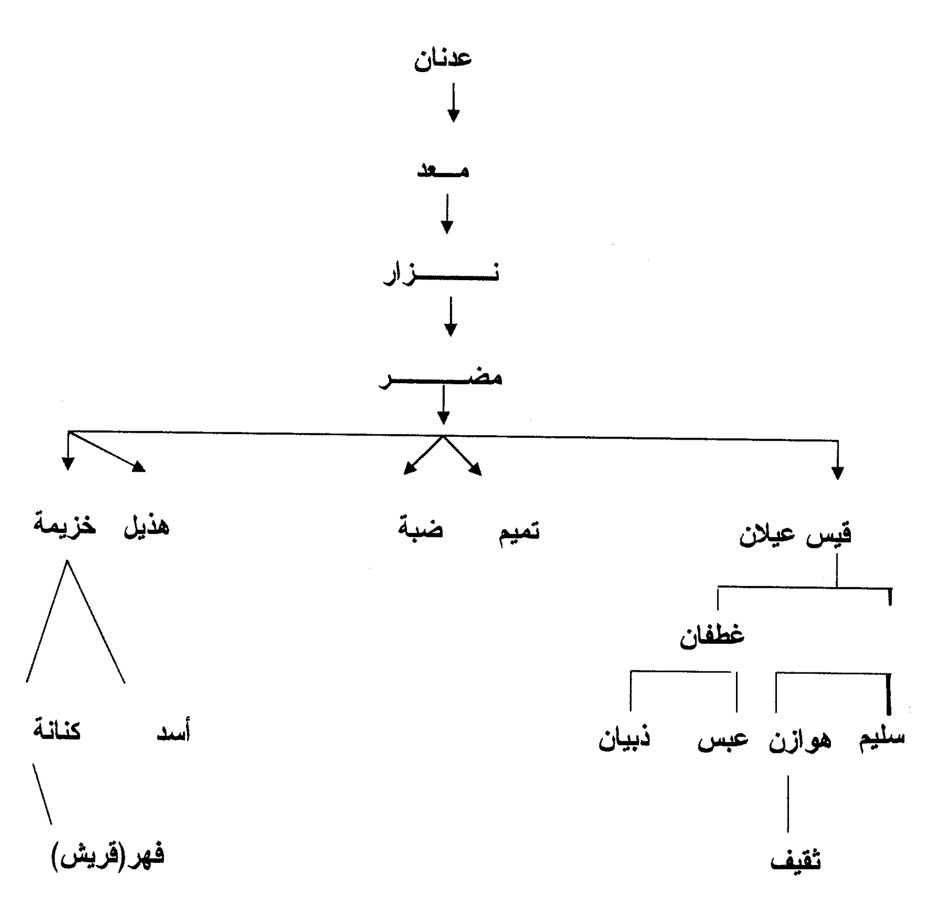
[٢] الخرص : ما على النخل من الرطب تمراً ، ومن العنب زبيباً ٠

إنشاء الرسائل الفنية

رأى القلم أن عيناى قد اتسعتا ، وعنقى قد تطاول ، فأدرك بفطنة القلم الذى عاش بين الناس أمداً طويلاً أن لدىَّ سؤالاً ملحاً أريد أن أطرحه على مسامعه .. عند ذلك نظر إلىَّ وابتسم وقال : " أيها الصديق ، لا تجمح جماح ما بداخلك ، فلتسأل وأنا أجيب ، حينذاك يسعد بالسؤال والإجابة من يسمعنا ، أوَنسيت أن هذا ما يسعى إليه الكاتب والقلم" ؟ .

كم كانت سعادتى بكلمات صديقى القلم ، وسرعان ما نظرت إليه وبادرته قائلاً : " فلتحك لنا كشاهد وطرف فاعل فى جل العصور ، كيف نشأت الكتابة فى صدر الإسلام ، وكيف أهتبل المسلمون الفرصة ، وعرفوا الكتابة ، والأمّية – كما نعلم – كانت متفشية بينهم" ؟ .

اعتدل القلم فى جلسته ، وقال فى فرحةٍ والبشر يعلو وجهه : " لأننى قلم عربى قلباً وقالباً " ، أقول بفخر مستحق : " كان العرب – كما نعلم – ينقسمون إلى شعبين كبيرين : العدنانيين والقحطانيين .. والعدنانيون ينقسمون إلى فرعين كبيرين هما : ربيعة ، ومضر ، وكلاهما تفرع إلى فروع كثيرة ، وكان فرع مضر كالتالى :



وكان أكثر قبائل " مضر" فى الجاهلية أهل البدو ، أميين لا يكتبون ، فلما انتشر اهتمام أهل القرى بالتجارة ، خاصة مكة ، ونقلها بين اليمن والشام والعراق، اضطروا إلى تعلم الكتابة ٠٠ وأول من تعلمها منهم " حرب بن أمية القرشى" جد معاوية بن أبى سفيان ٠

وعندما جاء الإسلام كان قد تعلمها طائفة من أهل مكة ، أسلم بعـضهم وهاجر٠٠ وسرعان ما تعلمها منهم الأنصار ، وكذلك تعلمها بعض نفـر مـن أسرى بدر ٠٠ ولقد حض النبى – صلى الله عليه وسلم – على تعلم الكتابـة ، وكان له من المهاجرين والأنصار عدة كُتّاب ؛ منهم من كتب رسائل الرسـول إلى الملوك ، ومن هؤلاء الكتاب من كان يكتب العهود لمن أسلم من القبائـل ، ولمن صالحوا المسلمين فى حرب ٠٠ ومن هذا العهد أطلقت الكتابة على معنى إنشاء الكتب والرسائل والعهود وكتابة الدواوين " ٠

ثم يصمت القلم قليلاً ، وسرعان ما تنفرج أساريره ويقول مازحـاً: " وكما يقولون (الحاجة أمّ الاختراع) ، وعندئذ يقاطعـه أحـد الأقـلام الـشابة مستفسراً: ماذا تقصد ؟ فيقول: " كان لكثرة الجيوش والفتوحات والمغانم فـى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ضرورة ملحّة ، لأن يأمر الخليفة بإنشاء ديوان للجيش يدون فيه أسماء المقاتلين وأنسابهم وأعطياتهم ، فهو أول مـن دوّن الدواوين من الخلفاء "٠

وكان كثيراً ما يقول لعمال الديوان وكُتّابه : " إن القوة علـى العمـل لا تؤخر عمل اليوم للغد ، فإنكم إذا غفلتم ذلك تذاءبت عليكم الأعمال ، فلا تدرون بأيها تبدءون وأيها تؤخرون "٠٠واتبع الخلفاء من بعد عمر سُنَتَه فـى اتخـاذ الدواوين ٠

فلما جاءت دولة بنى أمية ، زاد معاوية عدة دواويـن هـى : ديـوان الخراج ، وديوان الخاتم ، وديوان الرسائل ٠٠ وكان يكتب له علـى الرسائـل

" عبيد الله بن أوس الغسانى " ، ويكتب له على الخراج " سرجون الرومى " بالخط الرومى ، إلى أن نقلت دواوين الخراج من الفارسية إلى العربية ، على يد " صالح بن عبد الرحمن " ، وكان ذلك أيام الحجاج ، ومن الرومية إلى العربية على يد " سليمان بن سعد " ، وذلك أيام " عبد الملك بن مروان " ، ثم نقلت فى مصر من القبطية إلى العربية زمن " الوليد بن عبد الملك " ، فأصبحت بذلك لغة الدواوين كلها عربية " .

رأيت شيخ الأقلام وكأنه أراد أن يكتفى بهذا القدر من الكلام ، حينذاك نظرت إليه ، وفى حب عاجلته بالسؤال : " وكيف كانت تُكْتَب الرسائل فى بادئ الأمر ؟ وهل تطورت بعد ذلك" ؟

وفى بشر يجيب القلم قائلاً : " كانت الرسائل تكتب أول الأمر بلغة التفاهم ، ولا يعتمد فيها إلا على بيان الغرض المقصود منها بأوجز عبارة .. وأكثرها كان يمليه الخلفاء أو الولاة والقواد على الكُتّاب ؛ لمكانتهم من الفصاحة وملكة الارتجال بينهم" .

فعندما عهد بها الخلفاء والولاة إلى الكُتاب من أبناء عرب الشام والعراق ومصر ، اتخذوها صناعة ، فتأنقوا فى صوغ عباراتها وتخير ألفاظها .. وأقبلوا على تعلم الأدب وحفظ القرآن وأشعار العرب ، وأدخلوا فى عبارة الكتابة محل ما استحسنوه من تشبيهات الشعر وضرب أمثاله وحكمه ، وترجموا إلى العربية كل ما أعجبهم من وجوه الأداء فى اللغة الفارسية والرومية .

تقدم قلم شاب من القلم الشيخ وسأله قائلاً : " يا شيخنا ، تعلم أنه فـــى عهد "عبد الحميد " ، قلل الكتّاب من استعمال الغريب من الألفـــاظ فـــى كتابـــة الرسائل ، وكذلك تجنبوا التعقيد، فاشتدت لذلك الصلة بين كل جملة وما يليها ، فهلاّ قصصت علينا نبذة صغيرة عن عبد الحميد وبعض أعمالـــه " ؟ ٠

استملح القلم سؤال الشاب ، وقال له فى إعجاب شديد : " لولا أنك يافتى عاجلتنى بهذا السؤال ، لكنت قد ذكرته لكم فى موضوع آخر ٠٠ فلمـــا شـــاهد الشيخ صاحبه والأقلام كلها آذان مصغية قال فى ودٍ : " هو عبد الحميـــد بـــن يحيى " مولى بن عامر بن لؤى بن غالب ، من قبيلة قريش ٠

كان عبد الحميد فى أول الأمر معلماً للصبية والغلمان ، يتنقل فى البلاد ويتكسب من التعليم٠٠ ثم سكت القلم قليلاً ليلتقط أنفاسه وقـــال مـــرة أخـــرى وعلامات السعادة تبدو على وجهه : " وإذا أراد الله تعالى بالإنسان خيراً رزقه بمن يوقد له شمعة ، تهديه إلى الطريق الأفضل له ، والذى يُظهر فيه براعتـــه وملكاته اليوم بعد الآخر ، وهذا ما حدث مع عبد الحميد الكاتب " ، فلما راحوا يسألونه: كيف ؟ قال :

" عرفته الأقدار بمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وذلك قبـــل أن يتولى الخلافة ، فخدمه بالكتابة ٠٠ وبخدمة عبد الحميد لمروان ، انتقل إلـــى الشام وخدم فى ديوان الخلافة ، وأثناء ذلك تعرف على بليغ زمانـــه " ســـالم " مولى "هشام بن عبد الملك " الخليفة ورئيس الديوان وقتئذٍ ٠

فلما صاهر عبد الحميد سالماً ، لقنه سالم صـناعة الكتابـة الديوانيـة ومراسم الملك، وكان سالم يعرف اليونانية وينقل عنها ، فاستفاد عبد الحميـد من صناعته وترجمته، وقدح عبد الحميد زناد فكره فحالفه التوفيـق ، وفـاق كتّاب العرب والموالى بخواص اجتمعت فيه من عقل وذكاء وحفظ قرآن ولغـة ورواية وخطب ، وعلم جم [1] .

وعبد الحميد الكاتب صاحب وفاء عظيم لأولياء نعمته ، يعرف ذلك من رسائله المطولة ، ومنها رسالته التى كتبها على لسان الخليفة لعامل له علـى أحد الأمصار ، يأمره فيها أن يزجر أهل مصر عن لعبة الشطرنج ويبـين لـه معايبها .. وللحق أن عبد الحميد كان يجيد الإيجاز ، كما يجيـد الإطنـاب ، ويتخير من الألفاظ أنصعها وضوحاً ، وأدقها كتابةً ، وأقواهـا حجـةً ، لهـذا استحق أن يسمى " شيخ الصناعة ، وأستاذ كل كاتب " .

ويصمت القلم لحظات ، وإذا به ينظر إلى الأفق ، وكأنه يتذكر الماضـى البعيد، أو لعله يلملم خيوطه ، وسرعان ما يقول : " ومن رسائله المختصرة ما كتبه فى وصاة قائلاً " :

---

[1] تاريخ الأدب العربى ، الجزء الرابع ، تأليف كل من : أحمد الإسكندرانى ، أحمـد أمين بك ، على الجارم بك ، عبد العزيز البشرى ، الدكتـور أحمـد ضيـف ، ص ١٧٩ .

حق موصّل كتابى عليك كحقه علىَّ ، إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآنى أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فحقق أمله" .

أما هذه السطور التالية فهى رسالته إلى أهله وهو منهزم مع مروان بن محمد يقول فيها بلسان صدوق ، وقلب عقول ، وعقل شفيف :

" أما بعد ، فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالمكاره والشرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً ، فملّح عذبها ، وخشّن لينها ، فابتعدنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان، فالدار نازحة ، والطيور بارحة .. وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً ، وإليكم وجداً ، فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها ، يكن آخر العهد بكم وبنا .. وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار مَن يليكم ، نرجع إليكم بذل الإسار ، والذل شر جار ".

نسأل الله تعالى الذى يُعز مَن يشاء ، ويُذل مَن يشاء ، " أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة فى دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين " [1] .

---

[1] المرجع السابق نفسه، ص ١٨١ .

القضاء والقدر

عمّ السكون قليلاً ، حينذاك خشيت الأقلام الفتية وشـقيقاتها الـصغيرة أن يتوقف حديث شيخ الأقلام عند هذا القدر ، فإذا بها تنظر إلىَّ فى لهفـة غيـر مسبوقة ، وكأنها تحثنى على الكلام ، عند ذلك وجدتنى أسأل صاحبـى قائـلاً : " أوَتعلم أن العقل للجسم بمثابة الأعمدة للبناء ، إن انهارت الأعمـدة انهـار الجسد ، وإن مَرض العقل أو احتضر انهار الجسد كله ، ولكن فى بعض الأحيان أسأل نفسى قائلاً : إن كان الرجل لا يُصِيبَ الخير إلا بعقله ورأيه ، وهـذا مـا يتفق معى فيه الكثير ، فما بال الرجُـل الجاهل يُصيب الرفعةَ والخيرَ ، والرجُل الحكيم العاقل قد يُصيبُ البلاءَ والضُرَّ " ؟ .

وصدق الشاعر حين قال :

تموت الأسد فى الصحراء جوعاً

ولحم الضأن تأكله الكلاب

وذو جهـل ينـام عـلى حرير

وذو علم ينام على التراب

اعتدل القلم فى جلسته وقال معقباً فى سرعة : " كمـا أن الإنـسان لا يُبصرُ إلا بعينيه ولا يسمعُ إلا بأذُنيه ، كذلك العملُ إنما هو بـالحلمِ والعقـلِ والتَثَبُتِ ، غير أن القضاء والقدر يغلبان على ذلك " .

نظر القلم فوجد الرؤوس وكأن عليها الطير ، والدهشة ترتــسم علــى الوجوه، فأيقن أن حديثه مع صاحب القلم ما زال مبهماً للأقلام الشابة ، وكذلك الصغيــرة ، وزاد من شعوره بذلك حين انبرى أحــد الصغــارسائــلاً إيـــاه : " ياشيخنا كيف " ؟٠

قال القلم : " زعموا أن أربعة نفر اصطحبوا فى طريق واحدةٍ ، أحــدهم ابن ملك ، والثانى ابن تاجر، والثالث ابن شريف ذو جِمالٍ ، والرابع ابن فلاح ، وكان الأربعة شديدى العوز ، وقد أصابهم ضرر وجهد شديدين فى غربةٍ ، ولا يملكون من حطام الدنيا إلا ما عليهم من ثيابٍ ٠

وبينا هم يمشون إذ فكروا فى أمرهم ، فقال ابن الملك: " إن أمر الــدنيا كلَّه بالقضاء والقدر ، والذى قُدِرَ على الإنسان يأتيه على كُلِ حــالٍ ، والــصبرُ للقضاء والقدر وانتظارهُما أفضلُ الأمورِ " ٠

وقال ابن التاجر : " العقل أفضل من كل شىء "

وقال ابن الفلاح : " ليس فى الدنيا أفضل من الاجتهاد فى العمل "

وقال ابن الشريف : " الجِمَال أفضل مما ذكرتُم "٠

فلما جلسوا يتشاورون قالوا لابن الفلاح : " انطلق فاكتسب لنا باجتهادِكَ طعاماً ليومنا هذا " ؟ ٠

فانطلق وسأل عن عمل يفعله ، فعَرَّفُوهُ أنه ليس فى المدينة شىء أعز من الحطب، وكان الحطب بعيداً ، إلا أن ابن الفلاح انطلق واحتطب طناً من الحطب ، وأتى به المدينة فباعه بدرهم واشترى به طعاماً وكتب على باب المدينة (عملُ يومٍ واحدٍ إذا أجهد فيه الرجل بَدَنَه قيمته دِرْهَمُ) ، ثم انطلق إلى أصحابه بالطعام فأكلوا.

فلما كان من الغد قالوا : " ينبغى للذى قال إنه ليس شىء أعز من الجمَال أن تكون نوبتهُ ".. فانطلق ابن الشريف ، فلما وصل المدينة فكَر وقال: " أنا لست أحسن عملاً، فما يُدْخِلَنى المدينة ، إلا أنه استحيا أن يرجع إلى أصحابه بغير طعامٍ ، وسُرعان ما انطلق حتى أسند ظهره إلى شجرةٍ عظيمةٍ ، فغلبه النوم فنام".

لم يمر من الوقت غير القليل ، ومر به رَجُلٌ من عظماء المدينة فراقَهُ جمالُهُ وتَوَسَم فيه شرف الأصل ، فرَّق له ومَنَحَهُ خمسمائة دِرْهم ، فكتب على باب المدينة (جمالُ يومٍ واحدٍ يُساوى خمسمائة دِرْهم) ، وأتى بالدراهم إلى أصحابه ".

سكت شيخ الأقلام ، فاغتنم أحد الصغار الفرصة وسأله فى لهفة قائلاً : "وماذا فعل الثالث" ؟ .

قال القلم : " فلما أصبحوا فى اليوم الثالث ، قالوا لابن التاجر: " انطلق فاطلُب لنا بعقلكَ وتِجَارَتِكَ ليومنا شيئاً ".. فانطلق ابن التاجر يمشى حتى بَصُرَ من سُفُن البحر كثير المتاع .

خرج التجار يريدون أن يبتاعوا متاع السفينة ، فلما تشاوروا وقرروا أن يرجعوا ولا يشترون فى يومهم هذا شيئاً ، عند ذلك يكسد المتاع ويرخص .

عندما علم ابن التاجر بذلك جاء إلى أصحاب المركب ، فابتاع منْهُم ما فيه بمائة ألف دينار إلى أجلٍ ، وأظهر للمحيطين حوله أنه يُريدُ نقل متاعه إلى مدينة أخرى .

فلما سَمِعَ التُّجَار ذلك خافوا أن يذهب متاع السفينة من أيديهم ، فأربحُوُه ، على ما اشتراهُ مائة ألف درهم .. وحَمِل رِبْحَه إلى أصحابه وكتب على باب المدينة (عَقْلُ يومٍ واحدٍ ثمنه مائة ألف دِرْهمٍ) .

فى اليوم الرابع قالوا لابن الملك : " انطلق واكتسِبْ لنا بقضائِك وقدرِك" فانطلق حتى أتى باب المدينة فجلس على مُتَكأ.

وبينا هو جالس مروا عليه بجنازة ملك المدينة ، فلم يحزن وكُلُّهُم يحزنون ، حينذاك سأله حارس الباب فى ثورة قائلاً له : " من أنت ياهذا ؟ وما يُجْلِسَك ههنا ولا نراك تحزن لموت الملك ، وهو الذى لم يُخْلِف وَلَداً وليس له أحد ذو قرابةٍ "؟.

فلما ذهبوا عاد ابن الملك فجلس مكانَهُ .. وعند عودتهم من الدفن بَصُرَ به الحارسّ فغضبَ ، وأخذه فحَبَسَه .. فلما كان الغد اجتمع أهل المدينة يتشاورون فيمن يملّكونَهُ عليهم ؟

وبينا هم يختلفون ، قال لهم البواب : " إنى رأيتُ أَمْس غلامـاً جالـساً على باب المدينة ، ولَم أرهُ يحزن لحزننا ، فكلمتهُ فلم يُجبنى ، فَطَرَدْتَهُ ، فلمـا عدت رأيتهُ جالساً فأَدْخَلْتَهُ السجن مَخَافَةَ أن يكون عيناً " ٠

وسرعان ما بعثوا إلى الغلام فجاءوا به ، وسألوه عن حاله ، وما أقْدَمَه إلى مدينتهم فقال : " أنا ابن الملك كذا ، وإنه لَمَّا مات والدى غلبنى أخى على المُلْك فهربت من يده حَذَراً على نفسى حتى انتهيت إلى مدينتكم هذه " ٠

لما ذكر الغُلامُ ما ذكر عَرَفَه من كان يَطَأ أرض أبيه ، وأثنوا على والده خيراً، وأسرعوا فاختاروا الغُلام مَلِكاً عليهم ورضوا به ٠٠ وأركبوه فيلاً أبيض وطافوا به حول المدينة ، فرأى ما كتبه أصحابه على باب المدينة ، فـأمر أن يكتب : " إن الاجتهاد والجَمَال والعَقْل ، وما أصاب الرجلُ فى الدنيا من خيرٍ أو شرٍ ، إنما هو بقضاءٍ وقدرٍ من الله عز وجل ، وقد ازددتُ فى ذلك اعتباراً بمـا ساق اللهُ إلىَّ من الكرامة والخير "٠

ثم انطلق فجلس على سرير مُلكه، وأرسل إلى أصحابه ، فلما حـضروا أشرك صاحب العقل مع الوزراء ، وضم صاحب الاجتهاد إلى أصحاب الزرع ، وأمر لصاحب الجمال بمال كثير ، ثم نفاهُ كى لا يُفْتَتَن به ٠

سكت القلم وراح ينظر إلى الحضور ، عند ذلك قال أحد الأقلام الفتيـة للشيخ : " لعل الأمر توقف بالملك ابن الملك عندما نَصَّب أصـحابه أعمـالهم الجديدة ، أليس كذلك يا شيخنا" ؟٠

نظر القلم إلى المتحدث وقال : " يا بنى ، كيف ينتهى الأمر عند هـذا ، وهو لم يضع القواعد والنقاط على الحروف بعد ؟ " ، فقال له : إذاً ماذا فعل ؟ ".

قال القلم : جمع عُلَمَاء الأرض وذَوِى الرأى وقال لهم : " أما أصـحابى فقد تيقنوا أن الذى رُزقوا به من خير إنما هو بقضاء الله وقدره ، وإنما أُحِـبُ أن تعلموا ذلك وتستيقنُوه ، فإنَّ الذى منحنى الله وهَيَأَهُ لى ، إنما كان بقـدر ، ولم يَكُنْ بجمال ولا عقل ولا اجتهاد .

وما كنت أرجو إذْ طردنى أخى أن يصيبنى ما يُعَيِشنى مـن القـوت ، فضـلاً عـن أن أصيـب هـذه المنزلـة ، ومـا كنـت أُؤمُـل أن أكـون بهـا ، لأنـنى قـد رأيـتُ فى هذه الأرض ما هو أفضل منى حُسْنًا وجَمالاً ، وأشدُّ اجتهاداً وأسَّد رأياً ، فساقنى القضـاءُ إلى أن اعتززتُ بقدرٍ من الله .. وفرغ الملك من كلامه وذهب كُلُّ إلى عمله " [١] .

---

[١] كليلة ودمنة ، عبد الله بن المقفع ، المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة ، ١٩٣٨ .

الفصل الثانى

من كل زمان زهرة

همس القلم فى أذنى ، وقال فى فرحة :
هُم كُثر على مَرّ الأزمان
فلتسمح لى أن أقطُفَ لك من كُلِّ زمان زهرة
فأومأتُ بالموافقة

وبدأ القلم يُسطر الكلمات الشفيفة ،
وهو يُقَلِّب فى صفحات التاريخ التى يحفظها ،
بل يعشقُها عِشْق الظمآن للماء البارد فى اليوم
القائظ ، وأنا أصغى إليه فى اهتمامٍ بالغٍ ٠

رمسيس الثانى

هو أشهر ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، تولى الحكم بعد وفـاة والـده سيتى الأول ، حكم مصر حوالى ٦٦ عاماً ، أقام خلالها العديـد مـن المعابـد والمنشآت التى خلدت اسمه على مدى العصور ٠

ابتسم صديقى القلم ابتسامة تمتزج بالاستغراب ، فلمـا سألتـه عـن سببهـا ، قال: " هناك أحد النصوص فى معبـد الملـك سـيتى الأول ، والـد رمسيس الثانى بأبيدوس ، يذكر النص أن الملك سيتى الأول أشرك معه ابنـه رمسيس فى الحكم ، إلا أن رمسيس الثانى لم يعترف بهذه الفتـرة ، واعتبـر بداية حكمه بعد وفاة والده مباشرة ، وبجلوسه على عرش مصر منفرداً [١] ٠

وفى رواية أخرى تقول : " أدرك سيتى الأول ضرورة أخـذ رمـسيس بالحزم والجدية وهو ما زال فتى يافعاً ، ليصبح صالحاً لتولـى الحكـم مـن بعـده ٠٠ فالأسرة الملكية أسرة جديدة ولا بد من عدم ترك الأمور تسير على هواها ، ولا بد من إزالة أية بادرة من شك فى اسـتمرار الأسـرة ٠٠ وأمـام الجمهور الكبير ، نادى الملك سيتى الأول بابنه نائباً للملك ٠

---

[١] تاريخ مصر منذ فجر الحضارة مجموعة محاضرات للأستاذ الدكتور / سيد توفيـق ، كلية الآثار ، والدكتور / سيد أحمد على الناصرى ، كلية الآثار ، جامعـة القـاهرة ، ص٢٠٣ ، عام ١٩٧٧ ٠

وعقب أحداث " إرم " اتجهت عناية الملك سيتى وابنه الأمير رمسيس إلى مشاريع ذات طبيعة سلمية ، والتفت إلى الصحراء الجرداء الشديدة الحرارة التى تقع بين البحر الأحمر والنيل ، ولكن فى جوفها الذهب الذى كان يملأ نفوس الفراعنة إغراء .. وشوهدا فى السنة التاسعة (الملك وابنه) يمشطان محاجر أسوان بحثاً عن الجرانيت الجيد لصنع التماثيل العملاقة والآثار الكتلية [1] ، وهنا توقف القلم عن الكلام ونظر إلىّ وقال : " إلى أى الروايتين تميل ؟ "

أومأت برأسى وقلت فى حماسة: " أميل للرواية الثانية ؛ لأنه من غير المعقول أن يمتلك رمسيس الثانى هذه الحنكة والخبرة السياسية الفائقة فى إدارة البلاد، والتى تحدث عنها التاريخ، من تلقاء نفسه ، دون تدريب مكثف ، ودون عناية كبيرة من والده سيتى الأول ، الذى كان همه الشاغل توريث الملك لأسرته.. ولكن ثمة نقطة قد تكون هى التى دفعت رمسيس الثانى لقولته هذه ، وهى حب التملك التى اشتهر بها ، والتى ظهرت بوضوح فى اغتصابه العديد من التماثيل وتخليد اسمه عليها ، فمن يفعل ذلك ، فلا غرابة أنه يزعم أنه توج ملكاً دون تدريب بعد رحيل والده سيتى الأول ، وهذا لا يمنع أنه ملك عظيم جدير بالاحترام والحب ".

---

(1) رمسيس الثانى فرعون المجد والانتصارات ، كنت أ. كتشن ، ترجمة د. أحمد زهير أمين، الهيئة المصرية للكتاب ، ص ٥٨ ، ٦٠ ، ١٩٩٧ .

نظرت إلى صديقى القلم ، وقد تبادر إلى ذهنى أنه حزين منى ؛ لأننى ربما أكون هاجمت بعنف بعض الشىء الملك رمسيس الثانى الذى يحبه حباً كبيـراً لحنكته السياسية ، وأعماله ولآثاره العظيمة التى يتحدث عنها من بداخل القطر المصرى ومن بخارجه ٠٠ وأثلج صدرى تلك الكلمات التى سمعتها من صديقى القلم حين قال : " نحن نتحدث يا صاحب القلم عن إنسان يخطئ ويصيب ، ولا نتحدث عن ملك من ملوك السماء " ٠

ثم صمت برهة وقال مرة أخرى فى حسرة : " من الأمور التى لا تعجبنى فيكم كتاب التاريخ من بنى الإنسان أنكم عندما تكتبون تـاريخ أحـد الزعمـاء تفترضون أن هذا الزعيم نبى مرسل من قبل الله ، تكتبون إيجابياته ، وتنسون سلبياته ، وإن سئلتم فى ذلك قلتم : " هكذا تتناول الأقلام الرمـوز "٠٠ وكـأن الأقلام يحق لها أن تنافق وتداهن عند كتابة التاريخ ، أولَيس يكفيكم أن بعض الأقلام تنافق وتداهن وتضلل هؤلاء الزعماء والملوك وهم على قيد الحيـاة ، أوتَفعل ذلك أيضاً بعد موتهم؟ أتضلل الأقلام الأجيال القادمة وتزيف التـاريخ ، سامح الله الإنسان على أخطائه التى لا تمحوها الأيام والسنين " ٠

قبلت القلم ، فهدأت ثورته ، وجفت دموعه ، وسرعان ما عاد للحديث عن رمسيس الثانى فقال : " اضطر فى بداية عهده إلى تعيين رئيس كهنـة جديـد للإله آمون ، وذلك بعد وفاة الكاهن " نب نثرو" الذى كان ينتمى إلى عائلة قوية فى طيبة ، فقد كان ابنه "باسر" هو وزير الملك سيتى الأول ، وكان رمـسيس الثانى من الذكاء بحيث إنه لم يعين أحد أفراد هذه الأسرة القويـة ؛ حتـى لا

يعطيها قوة أكبر ونفوذاً أكثر فى الدولة ، لهذا اختار " نب ونن اف" أحد كهنة مدينة ثنى بالقرب من أبيدوس ليكون رئيس كهنة الإله آمون فى طيبة [1] .

اقترب أحد الأقلام الشابة من القلم وسأله فى شغفٍ : " كيف بدأ رمسيس الثانى حياته ؟ " .

اعتدل الشيخ فى جلسته وقال معقباً : " بدأ الملك رمسيس الثانى حياته بالقتال مع إحدى طوائف شعوب البحر الذين يطلق عليهم اسم "الشردانا" والذين أعطوا اسمهم بعد ذلك لسردينيا ، وصارت موطناً لهم .

ومن خلال اللوحة التى عثر عليها فى " تانيس " والتى ترجع للعام الثانى من حكم رمسيس الثانى ، نعرف أنهم قدموا فى مراكب حربية من وسط البحر ، ولم يستطع أحد ردهم .. عند ذلك اضطر رمسيس الثانى أن يقابلهم عند أحد مصبات النيل ويهزمهم ، ويقتل أعداداً كبيرة منهم ، حتى إن البقية الباقية فضلت الاستسلام على القتال ، فأخذهم أسرى حرب .. فلما توالت الأيام أصبحوا جنوداً فى جيشه ، ولما تأكد من إخلاصهم ضمهم إلى حرسه الخاص .

ومن نص منقوش على لوحة عثر عليها بالقرب من العلمين ، حيث أقام رمسيس الثانى هناك قلعة لتأمين الحدود الغربية من زحف الليبيين ، نعلم أنه اضطر للقتال معهم عندما بدأوا يزحفون على حدود مصر الغربية .

---

[1] تاريخ مصر منذ فجر الحضارة / ص ١٩٦ .

وفى العام الرابع من حكمه قام رمسيس الثانى بحملة عسكرية وصلت إلى نهر الكلب (شمال بيروت) ، وبهذا استطاع أن يحتل شاطئ مملكة " أمورو" ، وبالتالى استطاع التحكم فى نهر الكلب ، الذى يعتبر من أهم وسائل نقل المعدات القادمة من البحر المتوسط إلى داخل البلاد ٠

ومن نتائج هذه الحملة انضمام أمير مملكة أمورو بـ " نبتشينا" إلى مصر ، ولم يخضع رمسيس بعد ذلك لتهديدات ملك الحيثيين " مواتالى" حيث كانت مملكة أمورو يتنازع عليها كل من مصر ومملكة الحيثيين ٠

سكت شيخ الأقلام ، وعند ذلك تقدم منه أحد الأقلام الشابة وسأله قائلاً : "وهل استسلم ملك الحيثيين لهذا الأمر ، أم أنه قام فجيّش الجيوش للقضاء على النفوذ المصرى " ؟ ٠

نظر القلم إلى السائل وقال له معقباً : " بل قام مواتالى بجمع جيش كبير بالتحالف مع ممالك أجنبية أخرى ، للقضاء على قوة النفوذ المصرية ٠٠ فلما علم رمسيس الثانى بذلك ، تحرك فى العام الخامس من حكمه على رأس الجيش لمحاربة ملك الحيثيين ومن معه ، فى معركة " قادش" الشهيرة ، ولعل شهرتها تأتينا من خلال تسجيلها بالحجم الكبير على واجهات وجدران أكثر المعابد التى شيدت فى عهد رمسيس الثانى مثل (معابد الكرنك – أبيدوس – الرامسيوم بالبر الغربى – معبد أبو سمبل الكبير) " ٠

أخذ القلم ينظر إلى الأفق البعيد ، وكأنه يستخلص حقيقة من بين أحداث الماضى البعيد ، إلا أنه سرعان ما قال بصوت خفيض تخاله أنيناً صادراً من

معدته: " رغم أن الجنود المصريون قد تمكنوا من القبض على جاسوسين من البدو أتباع الملك الحيثى ، إلا أن هذين الجاسوسين قد استطاعا خداع القيادة العسكرية المصرية بقولهما : " إن الملك الحيثى تقهقر بجيوشه إلى حلب ، عندما وصلت أخبار تقدم الجيوش المصرية ، إلا أنه فى الحقيقة كان كميناً متفقاً عليه بين الجاسوسين والملك الحيثى .

وبلع رمسيس الثانى الطعم ، عندما لم يتحقق من أقوالهما ، بل أسرع ليلحق بجيوش العدو بدون أن تلحق به باقى جيوشه ، وكاد رمسيس أن يهزم شر هزيمة فى معركة قادش ، لولا أن لحقته قوة عسكرية من الشباب فى الوقت المناسب ، فلما انضمت إليه تغير سير المعركة لصالح فرعون مصر ، الذى استطاع أن يفتح ثغرة بين جيوش العدو ؛ لينجو بنفسه ومعظم جيشه ، لتتحول هزيمته إلى نصرٍ غير متوقع.

وتذكر النصوص المصرية أن ملك الحيثيين أرسل لرمسيس الثانى خطاباً يلتمس فيه العفو ، ومنح رعاياه نسيم الحياة ، وقد فضل رمسيس بعد استشارة ضباطه أن يقبل خضوع العدو ، وعاد إلى مصر دون أن يضم مدينة قادش إلى أملاكه .

إلا أن هناك رواية أخرى مكتوبة بالخط المسمارى ، تذكر هزيمة المصريين على يد جيوش ملك الحيثيين التى لاحقت مؤخرة الجيش المصرى فى دمشق .

واختلف المؤرخون ، وأصابتهم الحيرة من الروايتين اللتين نسجتا حول معركة قادش ، فالبعض منهم يميل إلى الرواية المصرية ، والبعض الآخر يفضل الرواية الحيثية " .

وهنا قاطع الشيخ قلم صغيرٌ وسأله فى عجلة :" يا أبانا الشيخ ، فلتحدثنا أنت، أى الروايتين أقرب إلى عقلك ؟ ".

عندئذ يعتدل القلم فى جلسته ، ثم يتنهد ويقول : " العبرة دائماً بنهايات الحروب ، وليس ببداياتها ، وقِسْ على ذلك كل الأمور الحياتية " .

وليس معنى ذلك أن معركة قادش كانت هينة على رمسيس ، أو أنه لم ير شبح الهزيمة على بعد خطوات قليلة منه ، إن لم يكن تجرع مرارتها ، فلما وجدها أشد مرارة من الحنظل ، التهبت حماسته وحماسة جنده ، وزادت وفاضت عندما انضم إليه جيش الشباب .. حينذاك تحولت الهزيمة إلى انتصار ساحق ، جعل رمسيس الثانى يزفه بلغة العصر هنا وهناك ويخلده على جدران المعابد .

وحتى تقترب كلماتى من عقلك أيها الابن القلم ، عليك أن تتذكر معركة " أحد" ، كيف كانت انتصاراً كبيراً للمسلمين بكل المعايير فى الجولة الأولى ، وكيف انقلبت الدفة إلى النقيض عندما انشغل المسلمون فى جمع الغنائم ، ولم يضعوا أوامر الرسول – صلى الله عليه وسلم – نصب عيونهم .. وكيف ملأ انتصار أكتوبر ١٩٧٣ م ، أسماع الدنيا تصفيقاً وإعجاباً ، بعدما تحطمت آمال

العدو ومزاعمه وأساطيره التى لا تقهر ، وقد سبق هـذا الانتـصار النكـسة والهزيمة التى أدمت القلوب التى لا تعرف طعم اليأس إلى حين " .

لكن الصغير عاود السؤال مرة أخرى ودهشته قد تلاشت ، اللهم قدراً قليلاً هو الذى جعله يسأل أباه الشيخ قائلاً : " لكن ملك الحيثيين هو الآخـر أسـرع وكتب يزعم انتصاره على المصريين ، فما قولك إزاء ذلك ؟ " .

ربت القلم الشيخ على رأس الصغير ، وفى حنوٍ سأله فقال : " اليهود كما يعلم الصغار والكبار عبر التاريخ الطويل يكرهون السلام ، وعيونهم وعقولهم تألف الفتن والمؤامرات ، وسؤالى إليك هو : " لماذا أسرع اليهود بقبول معاهدة السلام مع المصريين بعد انتصار أكتوبر المجيد ، والسلام هو المرض العضال بالنسبة لهم " ؟ .

فيتنهد الصغير ، وفى شجاعة يقول : " مَن زُلزلت الأرض تحت قدميـه ، ورُوعت نفسه ، وذاق طعم الهزيمة ، ورأى الموت قاب قوسين أو أدنى منه ، بل شم ريحه ، وأدرك أن الطرف الآخر لا يفرط أبداً فى أرضه ولا عرضه ، بل أهون عليه أن يجود بروحه وتخمد الأنفاس منه فى سبيل ذلك ، لا شك أنه يقبل السلام دون الضغط عليه من أحد ، ولعل هذا ما حدث لليهـود بعـد انتـصار أكتوبـر ، ولعله السبب المباشر وراء قبولهم السلام " .

ثم ابتسم القلم ، كما ابتسم صديقه ، وسرعان ما قال الاثنان معاً للصغير السائل: " وكذلك فعل ملك الحيثيين ، عندما عـرض الـسلام علـى رمـسيس الثانى".

وفى عفوية شديدة قال القلم الطفل معقباً : " لعلى أجزم أن ملك الحيثيين فعل مثلما فعل رئيس العراق المخلوع ، عندما أطلق على معركته " أم المعارك " ، وهى فى الحقيقة أم الهزائم ، أليس ما تفوهت به الآن هو الحقيقة " ؟ .

فى أسف قال القلم وصديقه : " اللهم هى الحقيقة ، التى يتجرع مرارتها الآن شعب العراق الشقيق " .

يبدو أن ديمقراطية الحوار التى دارت بين الصغير وطرفى الإبداع القلم والأديب ، فتحت شهية أحد الأقلام الشابة ، الذى وقف وقال فى جدية وثبات : " لايمارى العقلاء فى أن رمسيس الثانى هو الفرعون البناء ، ولعل آثاره تشهد على ذلك ، وهو أيضاً فرعون المجد والانتصارات .. ولكن الذى أسأله دائماً لنفسى ، وربما أتحير فى إجابته هو : " هل المصريون هم فعلاً أحفاد الفراعنة ؟ وإن كانوا كذلك ، فأين أهراماتهم ؟ وأين معابدهم ؟ وأين مسلاتهم ؟ ، وإن خلصنا من هذا ، فإن الأمر الثانى المحير الذى يلاحقنى فى النوم واليقظة ويدمى قلبى هو : " هل فعلاً لو لم يساق العمال والفلاحون المصريون بالكرباج والسخرة ، ما كانوا أقدموا على حفر مجدهم الحيوى ، وشريانهم ، ووريدهم " قناة السويس" ؛ لأنهم أمة ابتليت بالكلام ، والأمة التى تبتلى بالكلام يطيش سهمها " ؟! .

نظر إلىّ شيخ الأقلام فوجدنى بركاناً ثائراً ، ووجد حمم الغضب تتحـرك بداخلى للانفجار ، فضحك على أمل أن تمضى ثورتى بعيداً ، حينذاك أستطيع أن أعقّب على سؤال القلم السائل ٠

فلما وجد أن ثورتى لم تخفت قال : " أذكّرك بقـول السـيدة عائـشة أم المؤمنين فى موقعة الجمل ، حين عاتبها الأحنف بن قيس على قدومها فقالت: " لقد استغرق حلم الأحنف (وهو رمز الحلم) هجاؤه إياى ٠٠ إلـى الله أشـكو عقوق أبنائى " ٠

فلما هدأت حدتى ، كما تمنى صديقى ، قلت بلسان وقلب مَن لا يرى وطناً غير وطنه ، ولا شمساً غير شمس بلاده : " ياهذا القلم ، نحن - المصريين - بالأدلة العقلية وبالحجج والبراهين أحفاد الفراعنة ، ولكننا انحرفنا مع الأيام عن جادة الطريق " ٠

رأيتنى أنظر إلى القلم السائل وأسأله قائلاً : " هل أنت مثـلاً تـشبـه أبـاك ؟ " ٠

القلم : " لا " - : " وهل جدك يشبه أباك ، أو أبوك يشبه جدك ؟ " ٠

القلم : " اللهم لا - : " وهل تشكّ للحظة واحدة فى نسبك ونسب أبيك ؟ "٠

فيجيب القلم فى لهفة والخجل يعلو وجهه : " لا أشك قيد لحظـة فـى ذلـك " ٠

اعتدلت فى جلستى وفى ثقة قلت : " ونحن لا نسمح لأى إنسان أو لأى قلم أن يشككنا فى بنوتنا لأجدادنا العظماء " .

أما عن سؤالك الثانى ، فنعم ، فى فجر ليل تجمد فيه حفيف الشجر من الظلم وقلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق ، حفر المصريون قناة السويس بالسخرة ، ولكن دعنى أطلب منك ثلاثة أشياء :

الأول : أن تنظر إلى الإستعمار المتوالى عبر الزمان ، والذى لم يترك المصريين يشعرون بطعم الراحة والاستقرار لكى يصنعوا مجدهم .

الثاني : أن تنظر حولك الآن ، وأن تحكّم ضميرك ، ألست ترى الخضرة والنماء ، وضوء الشموع الذى يبعث على الآمال هنا وهناك ؟ .

الثالث : أن تنظر إلى المصريين الذين نبغوا فى الخارج ، وتسأل نفسك : لماذا نبغوا ؟

سوف تأتيك الإجابة من داخلك أنت ، وليس من داخل أحد المحيطين بك لتقول : " إنه عندما يتوفر للمصرى الحب والأمان فى الداخل أو الخارج ، فهو فرعون بناء ، عطاء ، يبنى ويشيد بلا حدود " .

أراد القلم أن يضفى البهجة والسرور على النفوس ، وأن يمسح الحزن عن القلوب ، فقال : " دعونى أختم حديثى عن هذا الفرعون العظيم ، عن زيجاته ، فهل لدى أحدكم سؤالٌ مُلح يريد أن يدلى به الآن بلا حرج ؟ " .

تقدم أحد الشباب وقال فى حميمية : " فى هذا العرس الديمقراطى ، أجدنى فى أمَس الحاجة أن أسأل : " هل كانت زيجات رمسيس الثانى الكثيرة

بالشئ المألوف فى عصره ، أم كانت نزوة أو مرضاً قد أصاب هذا الفرعون ، أم أنها كانت ضرورة لا يتفطن إلى معناها وفحواها إلا كل حصيف منصف " ؟ .

يعتدل القلم فى جلسته ويقول معقباً : " من وجهة النظر الشخصية لا أعتقد أنها النزوة أو المرض ، وإلا فقد رمسيس الثانى عقله ، كما فقد هيبته ومملكته ، والتاريخ لم يحدثنا عن ذلك .. ولا أعتقد أيضاً أنها بالشئ المألوف فى عصره ؛ لأنها زادت عن المألوف والمعروف فى كل الأسرات الفرعونية " .

ولكن الذى أميل إليه ، وأرتاح لذكره هو : " أن الذى دفع رمسيس إلى ذلك هو الضرورة .. وقد يسألنى أحدهم ، كيف دفعت الضرورة إلى هذه الزيجات الكثيرة ؟ ، أقول : " إن رمسيس رأى بحصافته السياسية التى لا ينكرها عليه أحد، أن المؤامرات والفتن قد نسجت نسيجها من حوله منذ عشرات السنين ، فأراد أن يطفئ نارها المتوهجة ، فأخذ يتزوج من كل قبيلة بمفهوم العصر واحدة ، أو من كل شعب زوجة ، فكانت زيجاته الكثيرة التى تحدث عنها التاريخ ، ولعل إحداها كانت زواجه من ابنة ملك الحيثيين " .

سكت القلم قليلاً ، ثم قال مرة أخرى : " والآن سوف أحدثكم عن بعض هذه الزيجات : " لم تقتصر أنشطة رمسيس على العناية بالانشاءات المعمارية من مقابر ومعابد ، فقد بدأ الأمير الصغير فى سنوات نيابته على العرش ، وتتويجه ملكاً شرفياً ، فى تكوين أسرته الخاصة ، والمعروف أنه كانت له

زوجتان أثيرتان هما (نفرتارى ، وإست- نفرت) ، والأنباء التاريخيــة عــن أصول هاتين الفتاتين متضاربة " .

وتميزت نفرتارى بقوة الشخصية .. وكان رمسيس نفسه يقول عنها : " إنها لا تضارع فى جمالها أحداً من بين جميلات القصر ، أما إست نفرت فيبدو أنها آثرت أن تتوارى فى الظل .. وأنجبت الفتاتان الكثير من الخلف ؛ بنـــين وبنات فى السنوات العشر السابقة لموت سيتى الأول " .

فأنجبت نفرتارى لرمسيس الثانى أكبر أنجالـــه " آمـــون حرونمـــف " ، ومعناه (آمون عن يمينه) ، وأنجبت له إست نفرت ولده الثانى الذى سماه على اسمه رمسيس .. وأنجبت نفرتارى ثالث أولاده " برى حرونمف" ، وإست نفر الرابع "خع إم واست" (المشرق فى طيبة) .. ثم أنجبت له إيست نفرت أيضاً كبرى بناتـــه ، فسماها اسماً كنعانياً هو " بنت عنـــات " أى (ابنـــة الإلهـــة عنـــات) " .

سكت القلم قليلاً ثم قال مرة أخرى : " بمرور السنين اســتقر التحـــالف المصرى الحيثى ، بصورة جعلت " هاتوسيل الثالث " يطلب من رمسيس الثانى أن يوافق على التقدم لخطبة ابنته ليتزوجها ؛ توثيقاً للتحالف بينهمـــا .. وقبل رمسيس هذا العرض سريعاً ، وعبر هاتوسيل عن ســـعادته بـــذلك ، وبادلـــه رمسيس نفس الشعور " [1] .

---

(1) رمسيس الثانى فرعون المجد والانتصارات ، تأليف كنت أ. كتشن ، ترجمة د. أحمـــد زهير أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، ص ٦٤،٦٥،١٢٣ .

وفى السنة الرابعة والثلاثين من حكم رمسيس الثانى سنة ١٢٤٦ ق.م ، تحرك ركب الأميرة مغادرة وطنها إلى غير رجعة ، فلما وصل إلى القصر الكبير بمدينة " بى رمسيس" ، استقبل رمسيس الثانى الأميرة الحيثية الجميلة ، بعد طول انتظار ، وكان رمسيس ساعتئذٍ فى الخمسينات من عمره ، إلا أنه كان لايزال وسيماً "

ثم يضحك القلم فترتسم الدهشة على الوجوه الشابة والصغيرة والشيخ يقول : " وتوالت السنون ، ليأتى (عهد الأميرة الجديدة) عندما توطدت العلاقات بين الدولتين المصرية والحيثية بشكل كبير ، جعل هاتوسيل يعرض على الفرعون المزواج رمسيس الثانى ابنته الأخرى ليتزوجها ، وعليها هدية عرس لائقة .

ويبدو أن رمسيس الثانى كان صاحب شعار يقول : لا ترفض سيدة قط ، خصوصاً إذا أمهرت مهراً كبيراً .. وسرعان ما تمت الصفقة ، وفى الوقت المناسب كانت الأميرة الحيثية الثانية فى طريقها إلى مصر " [1] .

وكان لرمسيس الثانى أختان ، إحداهما تكبره والأخرى تصغره ، فأما الكبرى وتسمى (ثيا) فتزوجت برجل يدعى (تيا) كان مديراً للخزانة والثروة الحيوانية بمعبد الرمسيوم ، وأما الصغرى (حنت – مى – رع) فقد اقترن بها رمسيس الثانى ، وكان زواج الفرعون من وريثة العرش توطيداً للمركز من التقاليد المعروفة منذ الأسرة الثامنة عشرة .

---

[1] المرجع السابق نفسه ، ص ١٤٣ .

وأثناء العشرين سنة الأولى من حكمه ، كانت الصدارة للملكة الأم (تويا) ، التى رافقت سيتى الأول طوال فترة حكمه ٠٠ وتزوج رمسيس الثانى من كبرى بناته ٠٠ وعمر قصور الحريم بالولدان ، فقد أنجب مائة من الأولاد ذكوراً وإناثاً

وتثاءب القلم ، فأدركنا حينذاك أنه فرغ من حديثه عن فرعون مصر العظيم رمسيس الثانى، الذى حفرت أعماله المجيدة اسمه فى قلوب وعقول كل مصرى ، سواء الأحياء منهم ، أو الذين التحفتهم القبور ٠

* * * * * *

على زين العابدين

رأيتنى أنظر إلى صديقى القلم والبشر يعلو وجهى وأنا أقــول لـــه فـــى شغـــفٍ : " يا نهر العلم ، ياصادق اللفظ والسريرة ، هلاّ حدثتنى عن هذا العابد الذى لم يكن من الذين شغلتهم الدنيا بزخرفها ومالها وشـــهواتها ، ، ولا مـــن الذين يلهثون وراءها من أجل نزواته ، بل كان يردد ما قاله الإمام علىّ بن أبى طالب – كرم الله وجهه –: "مالى ومال الدنيا، يادنيا غُرِى غيرى" ، لذا كان كما قال العلماء " .

أومأ القلم برأسه وقـــال فـــى ودٍ : " ومـــــاذا قـــال العلمـــــاء ؟ " ، قلـــــت : " قالوا فى الرجل الفاضل الرشيد إنه لا يُرَى إلا فـــى مكـــانين ، ولا يليق به غيرهُمُا : إما خاشِعاً متعبِداً ساجداً ، وإما ينثر العلم على مُرِيديه ، أو يتعلمه " .

سكت القلم قليلاً وعلامات الدهشة والتعجب تبدوان على وجهه، إلا أنه قال بثقة من جاور العظماء الأتقياء : " ياصديقى ، هم كُثـــر ، ولـــشدة حبـــى واعجابى بمسلكهم مسلك الرهبان ، فإن حدثتك عن أحدهم شُـــبِه إليـــك عمـــن أتحدث ، فلئن نطق لسانك باسمه حدثتك عنه فى حُبٍ بلا توقف " .

اعتدلت فى جلستى ورحت أقول فى حب وفخر : " هـــو العابـــد ســـليل العظماء فى الدين والعبادة ، كثير الصيام ، حتى يظنه من بجواره أنه يـــصوم

السنة كلها ، كثير الصدقات حتى عُرِفَ أنه حبيب الفقراء وجليس المساكين وخادم المحتاجين ، الذى كان يقوم الليل باكياً ساجدًا ، ما بين قيام وركوع وسجود وخشوع وهو يُرَدِدُ :

إلهى نامت العيون ، وغارت النجوم

وأنت لا تنام يا حى يا قيوم

أنت العليم بسرى، وأنت غافر ذنبى

أنزل علىَّ سَكِينَتَك ولا تطردنى من رحمتك

إنه يا صديقى القلم ، "على زين العابدين بن الحسين "

رأيت السعادة ، وكأنما نسجت نسيجاً حول شيخ الأقلام وهو يقول فى فرحةٍ : "لا شك أن زين العابدين على بن الحسين يُعَدُ الرِّباط القوى بيننا وبين العرب ، وبين الفرس٠٠ ولعله أحد الأسباب القوية التى ساقها القدر اللطيف ليمحو الفرقة ، ويُقِرَ الألفة ، ويقرب بين الناس ٠

وحسبه فخراً أن تكون يده أقوى يد فى الأيدى التى عملت على تحرير العبيد، حتى إنه كان ينفق على هذا التحرير من ماله الخاص ، للدرجة التى جعلت الناس تقول : إنه أعتق الآلاف من الموالى والجوارى٠٠ وهو فى حد ذاته حدث عظيم قدمه زين العابدين للإنسانية ، وكيف لا ؟ والفرزدق ظل يفخر طوال حياته بأن جده فدى ثلاثمائة موءودة فى الجاهلية ، فحق لعلى زين العابدين أن يكون حديثه فخراً كله لتحريره الناس من الرق ، وهو أشد من الوأد ، وأقبح من القتل "٠

وهنا يقترب أحد الأقلام الشابة من الشيخ ويسأله مستفسراً : يا شيخنا لأننا أصدقاء للإنسان ، فدائماً ما يضعنا تكريماً لنا فى جيبه ؛ حتى نكون بالقرب من قلبه نسمع خفقاته ، ومن عقله فنسمع همساته ، لذلك فنحن ندرى أنـه لا ينفق ماله إلا فى أمرٍ يعشقه عشق العصفور للحرية، والمريض للشفاء ، فماذا ياتُرى عن عشق زين العابدين لتحرير الموالى والجوارى والعبيد " ؟ .

يُعقِّب القلم على سؤال الشاب السائل قائلاً: " عندما شبّ علىّ بن الحسين عن الطوق عرف أن أمه التى ولدته كانت قد ماتت وهى نفساء ، وأن أمه التى تحضنه إنما هى مولاته وإحدى أمهات ولد أبيه ، فعجب لإحسانها إليه ، وحدبها عليه ، وهو لم يكن وليدها ، فَرَقّ لها وعطف عليها .. فإذا به يشعر من ذاته أنه أصبح مديناً لهؤلاء الجوارى ، وأن عليه أن يفى لَهُنَّ متى أمكن الوفاء ، بل إنه زاد حباً فيهن ، حين علم أن أمه كانت " شاه زنان" المسبية من كابل ، وفرح من غير زهوٍ وازدهى من غير بطرٍ ، وماذا على أمه أن تكون من السبى ، فقد كانت بنت ملك ، وليس كل السبايا من العبيد ، وإن ساقهن المنتصر مساق العبيد .. وهكذا تغيرت نظرة الصبى إلى الموالى والجوارى ، وفطن قلبه إلى وجوب المساواة بين العبيد والأحرار .

وكما تعلمون أن الذى يحرك الإنسان دوماً لعمل الخير هو : الحب والمال ، وبجانب الحب الذى يزيد ويفيض فى قلب زين العابدين بن علىّ ، كان المال الكثير الذى أعانه .. فقد ورث أرض أبيه ، وأخذ حقه فى الغنائم ، ثم أخذ هو من جانبه ينمى ماله بفِلاحة الأرض واستنباط مائها ، فإذا به يستخدم

الوكلاء فى التجارة ، فتذهب إبله إلى الشام بثمرات الحجـاز ونجـد ، وتعـود بالفاكهة وغلات الشام [1] .. أما خدمه و فتيانه فلم يجعل لأحد أن يُستخدم عنده أكثر من عام ، ثم يطلقه حراً ، حتى صار فى المدينة جيش من الموالى الأحرار والجوارى الحرائر ، وكلهم ولاء لزين العابدين " .

نظرتُ إلى الأقلام الصغيرة وشقيقتها الشابة ، فرأيتها تواقة إلى سماع حديث كبيرها عن هذا الزاهد الأواب ، عند ذلك وجدتنى أنظـر إلـى الـشيخ الصديق وأقول : " يأبا التاريخ ، ليتك تقصّ علينا بعض الـصفحات الناصـعة البياض التى سطرتها بمدادك ، يوم كانت جيوش العرب ما تزال تدك حـصون فارس حصناً حصناً، فتفتح الحصون أبوابها ، فلما هزوا جدرانها انهارت ، لأن الناس إذ ذاك يريدون العدل ويرجون الخير ، وهم أشد عداوة لشيطان الـشر ، الذى أجهد أبدان العبيد ليريح السادة .. وخليفة العرب الراشـد " عمـر بـن الخطاب " حينذاك يريد العدالة للناس ، وينوى لو طال به الأجل أن يصل إلـى المسلم فى أقصى الأرض حقه فى الرزق ، فلا يرتفع صوت أحد بشكوى " .

ثم سكتُ عن الحديث ، وسرعان ما وقع بصرى على صديقى القلم الذى أدرك من فوره أننى أريده أن يستكمل الحديث ، فإذا به ينظر إلى الأفق البعيد ، وكأنه يتذكر الأحداث ، وفى سرعة واستبشار سمعته يقول : " وفَـر القـساور والأكاسرة أمام الجند الفاتحين ، وهاموا على وجوههم يسلكون طريق الهـرب نحو الشرق إلى بلاد الهند والسند .

---

[1] تاريخ اليعقوبى / ج٣ ، ص ٦ .

وفرّ " يزدجرد " من المدائن فى غرب فارس إلى كابل ، ذات المـــروج والعود ، ليلقى فى مروجها الوارفة آخر متعة ، ويشم من أعوادها الزكية آخر أنفاسه (١).

ولكن جنود العرب ما لبثوا أن لحقوا به ودقوا أبواب الحـــصون فــــى كابـــل ، فباد الحرس ، وفنيت القساور ، ومات يزدجرد ، ووقعت بناته فى يــد القائد الزاحف، الذى أسرع وأرسلهن فى السبى إلى "عمر بن الخطـــاب " فـــى المدينة ليرى فيهن رأيه ، فالأمر إليه ؛ إن شاء رد وأطلق ، وإن شـــاء أبقـــى وقيد" (٢).

وفجأة انفرجت أسارير القلم ، فأدركت من فورى أن وراء سعادته دلالة يبغى أن تصل إلى العقول ، فلما أشرت عليه أن يفصح عما يدور بخلده قال : " ولم ير السبايا أنفسهن من بأس فى أن يُبَعْن ، فإنه أفضل لهن وأزكى من القتل والجوع والعرى والشرود ، بل إنهن لم يرين فى بيعهن جرحـــاً ، فإنهـــا لغـــة العصر وقانونه ، أو بالأحرى هى لغة الحرب فى كل زمان ومكان .. وكيـــف يتسرب إلى داخلهن قيد أنملة من الحزن ، وهن يعلمن أن الأســـير المعتـــوق والجارية المعتقة يصير لهمـــا حـــق الولاء ؟(٣) .. بل سمعن أن محمداً رسول

---

(١) معجم البلدان ، ج٧ ، ص٢٠١ .

(٢) انظر الخراج لأبى يوسف ، ص ١٩١ .

(٣) بدائع الصنائع ، ج٤ ، ص١٥٨ .

الله – صلى الله عليه وسلم – قد حرَّم على السادة أن يستعبدوا الناس ، بل حرَّم عليهم أن يؤذوهم بالألفاظ ، أو يجرحوهم بالألقاب ، فقال لقومه :

لا يقل أحدكم عبدى ، أمتى ، وليقل : فتاى ، فتاتى ، غُلامى [1] ٠

وبيع السبايا ، ورُدَّت أثمانهن على بيت المال ، وبقيت بنات يزدجرد بن كسرى ، فإنهن غاليات ، وليس لأحد قدرة على أثمانهن ولا قدرة على قلوبهن ٠٠ وكُنَّ ثلاثاً ، ليس فى أرض كسرى مثلهن جمالاً وترفعاً وإباءً ٠٠ ومضى عمر بن الخطاب يطلب من الناس أن يشتروا ، وتطلعت العيون ، فإذا بنات كسرى قد كسرتهن المذلة ، وفاضت من أعينهن الدموع ٠

ورقّ لهن على بن أبى طالب ، الذى أسرع وقال لعمر : " إن بنات الملوك لا يعاملن كغيرهن من بنات العامة " ، فقال عمر : " أشِرْ علىَّ بالرأى حيالهن ؟" ، فقال على : " يغالى فى أثمانهن ، ثم يكون لهن الخيار ، يخترن من الرجال من يشأن ، فاستحسن عمر الرأى ، وبدأ التقويم ، فأمسك الناس لغو الثمن ، وسقوط خيار الرجال ٠

فلما أمسك الناس وهابوا ، قام علىُّ – كرم الله وجهه – وقومهن بمال كثير ، ثم رد الثمن على بيت المال ، وترك لهن الخيار ٠٠ فاختارت واحدة منهم "عبد الله بن عمر بن الخطاب "، واختارت الثانية " محمد بن أبى بكر الصديق " ، أما الثالثة فمشت على استحياء خطوة فخطوة ، ومدت يدها

---

[1] الإسلام والحضارة العربية ، ص ٩٨ ٠

ترسلها للحظ والقــدر ، ثم وضعتها على رأس فتى كان قد جلس بــين عمــر وعلىّ ، إجلالاً له وتكريماً لشأنه ، وكان هو الحسين بن علــى ، وكانــت هى (شاه زنان) بنت يزدجرد [1] بن كسرى ملكة النساء[2] ، فلما حدث ذلك منها ، سُر ابن أبى طالب واستبشر وقال لولده الحسين : " يأبا عبد الله ، لتلدنَّ لــك خيــرَ أهــل الأرض " .

قاطع أحد الأقلام الصغيرة شيخ الأقلام وقال له فى لهفةٍ : وماذا عن بنت الملك يا أبانا الشيخ عندما انتقلت إلى بيت ابن بنت الرسول – صلى الله عليــه وسلم – " ؟

اعتدل القلم فى جلسته وقال : " دُللت يا بنى ، وأضاءت فى بيت الحسين كالشمس ، وخطرت كالظبية ، ونفحت كالعطر ، فسميت " غزالة " ، وســميت "سلافة" ، وسميت " خولة " .. وظلت بتزويجها من الحسين السبط – كما كانت أو أحسن مما كانت – ملكة النساء .

---

[1] شاه زنان، اسم فارسى معناه: ملكة النساء .

[2] وفيات الأعيان ، ج١، ص٥٧٥ ، النجوم الزاهرة ، ج١ ، ص٢٢١، تاريخ الخميــسى ، ج٢، ص٣٨٦ ، تذكرة الحفاظ ، ج١ ، ص ٧٠ ، أعيــان الــشيعة ، ج٤ ، ص ٤١٧ ، دائرة المعارف للبستانى ، ج٩ ، ص ٣٥٥ .

وولدت للحسين ولداً مشرق الوجه ، مفتر الثغر ، فيه من الحسين حسنة ورونقه ، وفيه منها ضعفها وانكسارها ، وفيه منهما رفعة وعلو وعزة وإباء ، ففرحت به وقرت عيناً وأسمته علياً ٠

ولم تدم فرحة غزالة بولدها كثيراً ، فسرعان ما أصابتها حمى النفـــاس وثقلت عليها ، وأسلمت الروح وهى تنظر إلى أملها الذى رجته داعية ربها أن يتحقق فى ابنها المولود الصغير [١] ٠٠ وكفلته بالرعاية إحدى أمهـــات ولـــد أبيـــه ، فحضنته وأرضعته ، وعنيت به ، كما تعنى الأم الرؤوم بفلذة كبدها ٠٠ ودرج علىّ زين العابدين فى جو من الكتمان الشديد لأخبار أمه التى ماتت ٠

وأحس علىّ – حين أخذ يكبر – أن أمه تبالغ فى الرعاية به أكثر ممـــا تفعل الأمهات الأخريات ، حتى إذا جاءهما الطعام فى أوانه ، نظرت إليه وكفت يدها ، أو تشاغلت وتباطأت ، حتى يأخذ هو ما يريده ، فلما رآها تفعل ذلـــك ، كف يده عن الأكل معها ، وامتنع أن يؤاكلها ، فلما لامه الناس وسأله بعض نفر منهم : كيف لا تؤاكل أمك؟ قال : إنى أخاف أن تمتد يدى إلى ما قـــد ســـبقت عينها إليه ، فأكون قد عققتها " [٢] ٠

---

[١] أعيان الشيعة ، ج٤ ، ص ٤٠٨ ٠

[٢] عيون الأخبار ، ج٣ ، ص٩٧ ٠

سكت القلم قليلاً ، حينذاك عرفتُ أن ثمة كلمات يريد أن يضيفها معقباً على ما قاله ، وصدق تخمينى حين قال: " من وجهة النظر الشخصية أعتقد أنه من شدة فرط حب المرأة لولدها علىّ ، أرادت أن يأكل كل ما تقع عليه عيناه ، فهو ضعيف وما زال فى ميعة الشباب ، وهو الأمر الذى تفعله معظم الأمهات فى كل العصور ، من منطلق أن الآباء والأمهات بحكم العمر أكلوا وشربوا حتى الشبع ، أما هؤلاء الأطفال والشباب فما زالت أجسامهم فى مرحلة التكوين .

أما ما فعله على زين العابدين فهو يستحق الإشارة إليه ، والإشادة به ؛ لأنه قاوم زيغ نفسه وشهوتها وطمعها ، بل راح فأدبها وتخلى عن أنانيته ، وجَمَحَ الطمع بداخله، وأطلق للعفة والشبع العنان ، فأثار تصرفه عجب الناس ، ولعلى أجزم أن أى طفل أو شاب لا يقوى على فعل ذلك ، إلا إذا نشأ وترعرع فى بيت النبوة " .

رأى الشيخ أن قلماً صغيراً بدأ يدفع ذويه حتى يتقدمهم ، وأن الجدية باتت واضحة على وجهه ، فأشار إليه من حلب الدهر أشطره أن يلقى بسؤاله ، عند ذلك قال الصغير السائل : " لما سبرنا معك غور شخصية هذا العابد الزاهد ، عرفنا أن سبب تسميته بزين العابدين هو كثرة عبادته وزهده للدرجة التى تلفت معها الانتباه..وحين رآه الناس لا يقوم من سجود إلا إلى سجود سموه السجاد ، وقد أطلقوا عليه قبل ذلك ابن الخيرتين [1] ؛

---

[1] الكامل ، للمبرد ، ج١ ، ص ٣١١ .

جدته بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأمه بنت يزدجـرد الملـك ، وسموه سيد العابدين ، والزكى الأمين [1] ، وكنوه بأبى الحسن ، وأبـى بكـر ، وأبى محمد [2] ، ولكن الذى لا ندريه هو سبب مسحة الحزن التى لازمته منذ أن كان فتى ، إلى أن صار كهلاً ، فهلا سمحت وقصصت علينا قدراً يـسيراً عـن سبب هذا الحزن ؟ " ٠

فى نبرة حزينة عقّب شيخ الأقلام قائلاً : " قبل معركة كـربلاء الباسـم أولها ، العابس آخرها ، رأى الحسين أن العلّة قد ألحت على جسد ولده ، فزاد مرضه ، فرق له وأراد أن يخفف عنه فقال له :" أى بنـى ، مـاذا تـشتهى ، اقتـرح ؟ " فقال علىّ لأبيه بلسان العابد : " يأبى أشتهى أن أكـون ممـن لا يقترح على الله أن يدبر أمره"٠

طرب الحسين لجواب ابنه وقرت عينه به وقال له : " أحسنت يا بنى ، إن إبراهيم الخليل – عليه السـلام – عندما سأله جبريل – عليـه السلام – حاجة يقضيها له ، قال إبراهيم : " إنى لا أقترح على ربى ، بل هـو حـسبى ونعم الوكيل !! وأنت ضاهيت يا بنى فى قولك هذا قول أبى الأنبيـاء – عليـه السلام " [3] ٠

---

[1] دائرة المعارف للبستانى ، ج٩ ، ص ٣٥٥ ٠

[2] النجوم الزاهرة ،ج١ ، ص٢٢٩ ٠

[3] أعيان الشيعة ، ج٤ ، ص ٤٨١ ٠

وانتهت المعركة ، ووضع رأس الحسين بين يدى الجبار الوغل " عبيد الله بن زياد " ، وكانوا قد أحضروا له غداءه ، ودعوا إليه من تعودوا أن يجتمعوا معه على طعامه، وجعل ابن زياد يأكل وهو شامت مسرور .. ورأى ذلك منه علىّ بن الحسين ، فتحركت فى نفسه أول شهوة إلى شىء من الأشياء .

وما كادت نفس الفتى تتحرك بالشهوة والطلب ، حتى ذكر أباه الحسين حين سأله عما يشتهى ، فودَّ أن لم تكن تحركت فى نفسه شهوة ، أو حام عليها مطلب.. لقد اشتهى علىّ أن يجىء يوم يدخل فيه عليه رأس ابن زياد ، حين يكون قد دعا الناس إلى طعام ، ولم يلبث أن صارت الشهوة دعاء خافتاً ناجى به ربه مخلصاً ضارعاً فقال : ربِّ لا تمتنى حتى ترينى رأس ابن زياد وأنا أتغدى " .

وتحقق الدعاء

تنهد القلم فخرجت من فِيه زفرة ألم ، أعقبتها ابتسامة غاربة ، بعدها قال : " ومرت الأيام والسنون ، وكان علىّ كلما جاء وقت الطعام وفتحت مصاريع الأبواب ، ووضع طعامه بين يديه ، دمعت عيناه ، فقال له ذات مرة أحد مواليه : " يا ابن رسول الله ، أما آن لحزنك أن ينقضى ؟ " .

فقال زين العابدين معقباً على السائل : " ويحك ، إن يعقوب – عليه السلام – كان له اثنا عشر ابناً ، فغيب الله واحداً منهم ، فابيضت عيناه من الحزن ، وكان ابنه يوسف حياً فى الدنيا .. وأنا نظرت إلى أبى وأخى وعمى ،

وسبعة عشر من أهل بيتى ، وقوماً من أنصار أبى مصروعين حولى ! فكيف ينقضى حزنى" ؟ [1] .

وذات يوم فتحت أبواب زين العابدين كعادتها اليومية للطعام ، وهو مشغول يمر بين الناس يرعاهم ويستضيفهم ٠٠ وبينا الناس تأكل ، فإذا بمنادٍ ينادى بأعلى صوته قائلاً : " ياأهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومهبط الملائكة ، أنا رسول المختار الثقفى إليكم ، ومعى رأس " عبيد الله بن زياد " ٠

وإذا بالناس تكف عن الطعام فتنظر ، وإذا بنساء بنى هاشم تصرخ وتهلل٠٠ وإذا برسول المختار الثقفى يدخل وهو يحمل الرأس على رمحه ، حتى إذا كان بين يدى زين العابدين ، وضعه بين قدميه ، فغضَّ زين العابدين من بصره وقال : " أبعدوه أبعده الله "، ولكنه تبسم وضحك ، وهو الذى لم ير قط ضاحكاً منذ مقتل أبيه، إلا فى ذلك اليوم ٠

ولا أعتقد – وأنا القلم الذى خبرت بسرائر الناس ، عابدهم وفاجرهم – أن ضحكة زين العابدين فى ذلك اليوم كانت شماتة – والعياذ بالله – فقد ذهبت من نفسه الشماتة ، ليحل محلها الإيمان الراسخ بالله ، ولكنه تذكر أباه الحسين ، وهو يقول له فى مرضه : أى بنى ماذا تشتهى : اقترح ؟ فلم يقترح ، ولكنه دعا إلى الله أن يدخل به عليه وهو يتغدى ، وقد استجاب الله له فى عبيد الله بن زياد ٠

---

[1] أعيان الشيعة ، ج٤ ، ص ٤٢٥

الأجواد الملثمين

رأيتنى ابتسم والبشر يعلو وجهى وأنا أنظر إلى القلم وأقول له مداعباً : "أيها الصديق العجوز ، أوَتعلم أنه إذا جاء علياً زين العابدين طالبُ علمٍ رحب به وقال: " أنت وصية رسول الله ، إن طالب العلم لم يضع رحله على رطب ولا يابس من الأرض إلا سبحت له الأرض إلى السابعة" [1] ، فما لى أرى الوضع هذه الأيام انقلب إلى النقيض ، حتى إننى لأزعم أنهم لولا الملامة لوأدوا الأقلام وأصحابها إلى الأرض السابعة ، والتاسعة إن وجدت ، فأين هم من نصيحة الحكيم خيتى لابنه بيبى عندما قال : " إنه لا توجد مهنة من غير رئيس لها إلا مهنة الكاتب ، فهو رئيس نفسه .. ثم سكت خيتى وقال مرة أخرى لبيبى : " ليتنى أستطيع أن أجعلك تحب الكتب أكثر من أمك ، وليتنى أستطيع أن أريك جمالها ، إنها أعظم من أى شىء آخر [2] .

فضّل القلم السلامة ، فلم يعقب على ما قلته ، إلا أنه تنهد وهز رأسه فأدركتُ حينذاك ما بداخله .. وفى سرعةٍ بادرته قائلاً : " وماذا عن الأجواد الملثمين يا شيخ الأقلام وقلبها النابض بين جنباتها ؟ " .

---

[1] سبحت له : أى دعت واستغفرت له .

[2] الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء ، محرم كمال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨ .

اشرأب القلم ونظر إلىَّ وقال : " أوتعلم يا صاحب القلم ، أنه لما مـات على زين العابدين أخذ الذى يغسله ينظر إلى آثار سوداء بظهره ، فلما سأل عن سببها ، قيل له إنه كان يحمل أجولة الدقيق ليلاً على ظهره فيعطيها فقراء أهل المدينة ؟

اتسعت عيون الأقلام الصغيرة من الدهشة ، وسرعان ما تقدم أحـدهم ليسأل الشيخ فقال : " بالله عليك يا شيخنا ، ماهى حكاية هذا الكريم الملثم ؟" .

اعتدل الشيخ فى جلسته وقال : " جعل زين العابدين طعامه للناس عامة، يأكل منه ذو الرحم ، والصديق والفقير والغريب ، لا حجاب على النـاس فـى طعامه ، غير أن علياً رأى أنه حين يأتى وقت الطعام ، فإن كثيراً من الفقـراء يتعففون فلا يحضرون ، وكان يعرفهم بأسمائهم ، فشطر طعامه إلى نـصفين ، نصف يأكله هو وضيوفه فى بيته ، والنصف الآخر يذهب إلـى الفقـراء فـى بيوتهم .. من شاء أخذ طعاماً ، ومن شاء أخذ مـالاً .

ثم رأى علىّ أن قوماً أخرين قد غابوا ، فلا هم جاءوا ، ولا هم أخذوا ، قد ستروا أنفسهم وعفوا وأمسكوا بطونهم على الطوى ، فـشطر لهـم جـزءاً ثالثـاً ، جعله طعاماً مرة ، ومالاً مرة أخرى .. ثم تلثم وارتدى ثوباً من دلجة الليل وستره ، ومضى إلى الأبواب وفى يده القبضة من المال ، وعلى ظهـره الجوال الملىء بالطعام .

وعندما راح يدق الأبواب كانت تفتح له ، فيدفع للناس آنذاك المال ، أو يضع لهم الجوال ، ويمضى لا يعرفونه ، ولا يسألونه هم من أنت ؟ فقد شاعت

فى المدينة صدقة السر ، بل كان الرجل من أهل بيته ، أو من أصدقائه حين لا يعرفه ، يتهم زين العابدين أنه لا يعينه ولا يطعمه ، حتى تأتى فى الليل الصدقات من الأجواد الملثمين .. ويسمع زين العابدين ذمه بأذنيه ، لكنه لا يتكلم ولا يقول : " أنه هو الذى يطوف متلثماً مستتراً لئلا تضيع المكرمة ، ولئلا يستوجب الغفران كلما ذمه الناس" [1] .

---

[1] زين العابدين بن على بن الحسين ، عبد العزيز سيد الأهل ، ص ٩٣-٩٤ .

عَمَّ السكون المكان ، إلا أنه سرعان ما قطعه شيخ الأقلام وهو يطلب أن يستمع إلىّ فى أحد الأمور التى طالما شغلتنى كما شغلت العقـلاء علـى مـر الزمـان ، فإذا بى – حتى لا أخرج عن سياق الحديـث – أقـول : " نظر علىّ بن الحسين فى الناس ، وفى الزمن حوله ، فإذا بروابط الناس قد حُلَّـت ، وإذا بالفروض قد طُرِحَت، ثم صار الأمر كله إلى القوة والسلب ، وضاعت الحقوق ، فأخذ يُمْلى على كُتَابِه وغِلْمَانه ما رآه حقوقاً جاء بها الإسلام ، ولكنها هانـت على نفوس المسلمين ، فآن لها أن تضيع " .

ورأيت عيناى طافحتان بالحزن والابتهاج ، الذى يأتى كـل يـوم مـع إشراقة الشمس ، أو تلبد الغيوم ، وأنا أستفرغ ما بداخلى قائلاً : " ولـم تكـن الحرية فى رأى زين العابدين حرية هوى وشهوة وانطلاق بلا قيد ، وإنما كانت حرية فاضلة تعلو بها الحقوق ، وتسعدها الواجبات ، وتقويها الروابط ، بـين الإنسان وخالقه ، والراعى ورعيته ، والمعلم وتلميذه ، والـزوج والزوجـة ، وبين الأب والأخ والأولاد ، وبين السادة والموالى ، والإنسان وأخيه الإنسان ، وبين الإنسان ونفسه، وبين العاطفة والعقل .. وحتى شهوة النفس وشـهوة البدن لها حقوق، وعليها واجبات.. وبين الجليس والجليس ، وبين الجيـران والشركاء فى الأموال ، والناصح والمستمع ، والكبيـر والـصغير ، والـسائل والمسئول ، وبين أهل الملة وأهل الذمة ، واجبات تفرض وحقوق تؤدى [1] .

---

[1] أعيان الشيعة ، ج٤ ، ص ٤٧٤ و٤٧٤ .

حتى فى العبادة ، رأى علي الإمـــام الـــساجد أن النـــاس يعبـــدون الله مختلفيـــن : فوجد قوماً يعبدونه رهبة وخيفة ، فأبى أن يكون منهم وأن ينسب إليهم ، فتلك فى نظره عبادة العبيد ، لا يفعلون القربى إلا خائفين ، ووجد قوماً يعبدون الله رغبة وطمعاً ، فأبى أن يكون معهم أو ينسب إليهـــم ، فتلك عبادة التجار ، لا يفعلون القربى إلا طامعين ، ووجد قوماً يعبدون الله شكراً وحمداً ، فانتسب إليهم ، وحجته ههنا أنها عبادة الأحـــرار [1] .

---

[1] أعيان الشيعة ، ج٤ ، ص ٤٤٥ .

حديث الموالى

رأى أحد الأقلام أن الإرهاق بدأ يحل على وجه القلم الشيخ ، فنظر إليه فى شفقةٍ وقال : " يا أبانا الشيخ ، لقد كان زين العابدين بن الحسين يسير إلى الطواف فى جمع ضارع صارخ بالتلبية والدعاء من الأحرار والموالى ، كما تسير السحابة المطرية المجلجلة ، تبرق وترعب وتسكب وتغيث ، فياليت كلامك عن هذا الزاهد العابد ينتهى عند حديث الموالى ؟ " .

ابتسم القلم وفى بشرٍ قال : " تحدث أحد الموالى إلى أصحابه فقال : كنت غلاماً لعلى بن الحسين ، فخفقنى بالسوط خفقة واحدة ، وكان قد بعثنى فى حاجة له ، فأبطأت عليه ، فلما جئته بها خفقنى ، فبكيت واحتدم غيظى ؛ لأنى ما ظننته يخفقنى حيث لم أره يخفق أحداً قط حتى ناقته التى يحج عليها .. ولما احتدم غيظى لم ألبث أن قلت له : " الله الله ياعلى بن الحسين ، أتبعثنى فى حاجتك ، ثم تضربنى " ؟ فبكى سيدى وقال لى : " اذهب إلى قبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم- فصل ركعتين ثم قل : اللهم اغفر لعلى بن الحسين ، وإذا ذهبت وفعلت أصبحت حراً لوجه الله ، فذهبت فصليت ودعوت ، ولم أعد إلى داره إلا حراً" [1].

---

(١) رسالة الحقوق ، فى أعيان الشيعة ، ج٤ ، ص ٥٠١ .

وقال مولى آخر :

وأنا قد ظفرت بأكثر مما ظفرت به ، كنت مولى له أتولى عمارة ضيعة من ضياعه ، وأستنبط ماءها ، فجاءنى يوماً وقد أصاب الضيعة فساد كبيـــر ، وأنا السبب فيه وليس غيرى ، فلما غاظه ذلك منى ، خفقنى بسوط كان فى يده وتركنى ومضى.

فلما كان فى منزله أرسل فى طلبى فجئته فوجدته مُغضباً والسوط فـــى يده ، فخُفتُ خوفاً شديداً ؛ لأنه لم يكن عاقبنى بما أستحق ، ولكنه قال لـــى : " كان منى ما لم يتقدم منى مثله ، وكانت هفوة وزلة ، فدونك والسوط وأقـــتص لنفسك منى" ، فقلت : " يا مولاى ، والله إنى ظننتُ أنك تريد عقوبتى ، فكيـــف أقتص منك وأنا لم أؤخذ بذنبى " ؟.

فقال لى زين العابدين : " ويحك اقتص ! فقلت : معاذ الله ، إنك فى حل وسعة، فجعل يكرر وأنا أتعاظم قوله وأجل تواضعه ، فلما رآنى قد أبيت قال : " أما إذا أبيت فأنت حر ، والضيعة صدقة لك ، وهاأنذا صرت حـــراً وصـــــرت غنيـــاً ".

فقال مولى ثالث :

لقد هان ما فعلتم ! وأما أنا فما أعظم جرمى وأكبر ذنبى ! فقـــد كنـــت غلاماً لزين العابدين، وقد قمت عنده على الشواء فى التنور ، فجاءه ذات مرة أضياف ، فاستعجلنى بالشواء ، فاختطفته من التنور فى السفافيد ، وقد احمرت

من النار ، وأقبلت مسرعاً فسقط سفود منها على رأس طفل صغير لسيدى ، كان واقفاً تحت مرقاة البيت ، فأصاب السفود رأسه ، ومالبث أن مات ٠

ثم أكل الضيوف ومضوا ٠٠ ونادانى زين العابدين ، فإذا أنا مضطرب مصفر ، قد جئته مكفناً محنطاً ، فلما رأى ما بى سبقنى بالعفو قبل أن أعتذر، ثم قال لى : "إنك لم تتعمد ذلك ، وأنت حر ، بعدها قال : خذوا فى جهاز ابنى وادفنوه" (١) ٠

وبلغ زين العابدين الثامنة والخمسين من عمره ، أو يكاد ، عندما جاء العام الرابع والتسعون من الهجرة ، وومضت آخر ومضة فى حياة الإمام الساجد ، والأخبار تأتى من بعيد لتعلن أن آخر حصن من حصون كابل قد سقط فى أيدى المسلمين ٠

* * * *

(١) الصفوة ، ج٢ / ص ٥٣ ٠

صلاح الدين الأيوبى

راح شيخ الأقلام يرمقنى بلواحظه ، فوجدنى ووجهى يتقلب بين الابتسام والعبوس ، فاعتلت الدهشة وجهه ، وبادرنى بالسؤال فقال : " لعلى أجـزم أن هناك أمراً عظيماً يحيرك إلى حدٍ كبير ، فإن قمت وطرحته على مسامعى ربمـا تبددت حيرتك وتبدل حالك " ؟

فى لهفةٍ وجدية رأيتنى اقترب من القلم وأساله قائلاً : " ياصاحبى ، هل قابلت فى هذا الزمان ، أو فى الأزمنة الماضية رجلاً كان ضرورة زمنه ؟ وهـل حُب الناس لأحد الرجال هو المعيار ، أم أن الإيمان به وبسياسته هو المعيـار الحقيقى ؟"

فى ودٍ وبصوت خفيض قال القلم : " انفرد صلاح الـدين الأيـوبى دون كثير من القادة الأبطال بأنه كان ضرورة زمنه ، فلم يكن يعوضه فيه بطل آخر تقل صفاته عن الصفات التى جاء بها بين قومه ، وهم قومنا ، وفى أرضـه ، وهى أرضنا ، وفى زمانه الذى هو أشبه بزماننا ٠٠ فاشتعال قلب صلاح الدين بالحذر والذكاء وحب الجهاد ليحمى قومه وبلاده ، يؤكد هو الآخر أنه كان بحق ضرورة زمنه ٠

إذاً لم يحصل صلاح الدين على مؤازرة كاملة من الناس إلا بعد أن آمنوا به، والإيمان برجل من بين الرجال أمر صعب وشديد ، وهو أكثر صعوبة وشدة من الحب ، لماذا ؟ لأن حب الناس يمكن أن يُجلب ببذل المال والتودد ٠٠ وهنا

سكت القلم برهة والتمعت عيناه بالعبرات ، إلا أنه عندما وجد الرقاب وقد اشرأبت ، والعيون قد اتسعت ، قال مرة أخرى فى مرارة : " ولعل خير مثال على ذلك الاستفتاءات والانتخابات التى تشهدها دول العالم الثالث ، ظاهرها الحب والتأييد ، والحقيقة أن هذا الحب يباع ويشترى ، لذلك أرى أن انتخاب بعض أعضاء برلمانات هذه الدول باطل ؛ لأنه قائم على التزييف من معدومى الضمائر ، الذين باعوا أنفسهم بالمال واشتروا ضلال شعوبهم باعتبارهم أناساً لم يؤمنوا بقضايا أوطانهم ، ولكن إيمانهم وولاءهم كان للمال .

والإيمان – كما تعلمون – لا يكون إلا بمشاهدة التوفيق يكتب للآراء والأعمال والتجارب ، ويحقق الناس عن طريقه كثيراً من الآمال ، ويصيبون كثيراً مما يتمنون " .

قفز أحد الأقلام الفتية ، فلما وقف أمام شيخ الأقلام قال : " يا أبانا الشيخ هل يحزنك أو يرهقك أن تلقى على أسماعنا مشهداً من المشاهد الداخلية قبل مجىء صلاح الدين مباشرة ؛ ليدرك كل منا حقيقة هذا الزمان " ؟

بدت علامات السعادة على وجه القلم من سؤال الفتى ، وسرعان ما أومأ برأسه علامة الموافقة وقال : " فى الداخل كان يقتسم الخلافة خليفتان ، والداخل هنا يعنى المشرق القريب ، لأن المشرق البعيد كان قد ضاع .. وأما المغرب فكان عليه خلفاء آخرون .. والخليفتان فى المشرق القريب لا شأن لهما بالمغرب ، ولا شأن للمغرب بهما ، وكان أحدهما بالقاهرة والآخر ببغداد .

وللأسف كل من خليفتى القاهرة وبغداد قد صار فى ذيل دولة تلفظ النفس الأخير ، فلم يكونا إلا كبقية زيت المصباح القديم ، تكاد تجف وتفنى

فينطفئ السراج٠٠ فخليفة القاهرة كان طرف الذيل فى دولة العبيديين ، وخليفة بغداد كان قد قارب طرف الذيل فى دولة العباسيين ٠

وكانا يهبان الهدايا ويخلعان الخلع ، ولكنهما كانا فى كل ذلك عن غير رأيهما ، فلا رأى لهما ولا خيار ، فسبحا فى قصريهما فى بحور الشهوات ، وتمرغا على مفاتن الدنيا من الذهب والجواهر والأثاث والرياش ٠

وإذا كان حال بلادنا فى ذلك الوقت قد بلغ هذه الغاية ، والأمراء جعلوا أمر الأجنبى أمراً ثانوياً ، والأهم منه أن يتقاتلوا ويدك بعضهم حصون بعض ، ورغم هذا لم تكن الأمة قد فسدت كلها ، بل كانت تنطوى على كثير من مواطن الخير والفضائل التى لا يستطيع طمع الأمراء وفسادهم أن يطمسها أو يأتى عليها " ٠

وهنا يقاطع أحد الأقلام الصغيرة الشيخ ويسأله مستفسراً فيقول : " كيف ؟ ليتك يا أبانا تدلل على كلامك " ؟

يقول القلم معقباً على سؤال الصغير : " كان الناس فى الزمان الثالث – كما رتب الفلاسفة الأزمنة – قد صلحوا وفسد الأمراء ، فكانوا كالجسد الذى لم تزل فيه السلامة، بينما فسد الرأس ، ولو فسدوا هم أيضاً لبلغوا الزمان الرابع ، وهو أفسد أزمنة الأمم ووقت فنائها ٠٠ ولو صلح الرأس كما صلحوا لبلغوا الزمان الأول، وهو أصلح أزمنة الأمم ووقت بقائها " [1]٠

---

[1] أيام صلاح الدين ، عبد العزيز سيد الأهل ، ص ١٠ ٠

ولم يبت الأمر قاصراً على أمراء الداخل يأكل بعضهم بعضاً ، ويسقط الناس هلكى على حفافى الأرحاء الدائرة على أجسادهم فى معارك الأمراء .

فحسبنا من عدو مقيم على العداوة ، يعوى على الأطراف مع ذئاب البرارى، إنه العدو الصليبى ، الذى لا تهدأ له ثائرة ، ولا يغمض له جفن ؛ لأنه يحلم بافتراس الشرق ونهب خيراته .. لذلك رأيت قائد وبطل حطين ، وكأن عبء المنطقة بأسرها قد ألقى عليه ، فسهر لها حذراً مقداماً يدارى سوس الداخل ، ويطرد غربان الخارج ، وظل يدفع ويمنع طول حياته ، لم يهدأ ولم يكل حتى قَضىَ . واستمر صلاح الدين يلقى العدو لقاء بعد لقاء ، والعدو لا ينقطع ولا يخمد ، وكلما مضى به زمن جاء به زمن ، وكلما فنيت عدة أنشأ الأعداء عدة ، وهم على كل لون ، وبكل السبل ، وباتت العداوة تنمو على الحصاد كأنها النبات " .

وقال فيه صلاح الدين نفسه : " والبحر لا يمسك عن القذف بأمواجه إلى الساحل ، كأنهم تياره الذى لا يهدأ ولا ينام " .

تنهد القلم وهو ينظر إلى الأفق البعيد ثم قال : " كانت الطريق كثيرة الصعاب مسدودة المسالك ، لا تجدى فيها الحيلة وحدها ، ولا الحرب وحدها ، بل لابد منهما جميعاً " .

وتمنى الناس أن يجدوا مخلصاً ينقذهم من المنحدر الذى هووا إليه .. فلما جاء " نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى "، وفيه من الصفات

والفضائل ما يعجبهم وينقذهم ، التفوا حوله ، فسهل عليه بمحبة النـاس لـه تأديب الأمراء وإخضاعهم لأمره ٠٠ ولكنه مع ذكائه وصـلاحه كـان ذا حـظ قليـل ، أو بالأحرى لم يصب الناس به حظاً كبيراً فذهب ٠

وكان للناس أو لصالحيهم – على الأقل – آمال كبرى فى الزعيم القادم ، فكانوا يرجون أن يبتر ويقص ويمحو ويطرد ، ثم ينشئ ويبنى ويُعلى ، فكـان لابد من زعيم شجاع ذكى يحاول أن يجمع الناس على رأى واحد ومذهب واحد ووطن واحد، يتحين الفرصة لضرب التطرف ، كل هذا يفعله فى حرص وذكاء ورفق ، من غير حدة ولا عنف ، لأن الإسلام لا يقبله ، فلم يكن ذلـك الـذكى الشجاع المرجو ضرورة زمانه إلا صلاح الدين الأيوبى " ٠

ويكفى أن نعرف أن هذا البطل المجاهد ولد قلقاً علـى الرضـاع ، ثـم استمر قلقاً حتى مات ، بل قلقاً إلى ما بعد الموت ؛ لأنه حمـل مـعه ظنونـاً ومخاوف على بلده وأهله وقومه ، وكان يراها كأنها تتحقق – كما تحققت فيما بعد – عياناً ، لذلك لم تكن ميتته هادئة ككثير من الناس ، وحتى من الأبطال ، وهم يودعون الدنيا .

سكـت القلـم قليلاً ، ثـم نظر إلى الحضور وقال فى حُبٍ وهو يـشير بعصاه : " وقبل أن أطوى صفحة هذا البطل المغوار ضرورة زمنه ، علـىَّ أن أذكر فلسفته فى الحياة وهى (أنه لا ضرورة لاقتناء المال ما دامـت الدولـة كلهـا له) ؛ لأنه مهما طلب فإنه سيجد ، أما إذا ذهبت الدولة منه لغيره ، فلن

يبقى له شىء من عام أو خاص ، فلا ضرورة إذاً للاقتنـــاء ٠٠ وقـد يكـون لصلاح الدين عذر فى أن يهب ويعطى بحُبٍ فى المواقع والانتصارات ؛ حتـى يجذب الأمراء والولاة ، ويكافئ المطوعين حين النـصر، أو يعوضـهم حـين الهزيمة ، والله أعلم بخبايا القلوب والعقـول " ٠

* * * *

محمد على باشا

التفت إلىّ صديقى القلم ، فإذا عيناى زائغتان ، وأنا أكاد لا أشعر بوجـــود الأقلام من حولى ، ولا أسمع إلا همس عقلى وحديث نفسى ، وإذا بالأقلام يتملكها الفزع فتسأل شيخها قائلة : " ماذا دها صاحبَك " ؟

ضحك القلم وقال معقباً فى سرعة : " اطمئنوا ، صاحبى بخير ، لكنه يفكر فى أمر كبير ، لذلك يراه الناظر ، وكأن عينيه تنظران إلى شىء ، وأذناه وكأنهم تتسمعان إلى شىء ، وهذا هو حال كل مبدع أو مفكر أو عالم عندما ينشغل بأحد الموضوعات ، أو يسبر أغوار الأحداث .. والأغرب من هذا وذاك أن الناظر إلـــى أحد هؤلاء فى ذلك الوقت يشاهده تارة متجهماً وأخرى مبتسماً ، خاصة عنـــدما يصل إلى شىء له قيمة ، حينذاك ينطلق لسانه كالحربة داخل فمه ، وإذا بقلمـــه يسطر فى عزة الحقائق ، والتى تتحول ذات يوم إلى شـــمعة تـــضىء الطرقـــات والسبل ، عندما يسدل الليل أستاره " .

تنبهت على صوت الصديق القلم وهو يسألنى فى ودٍ : " إلى أيـــن ذهـــب صاحب القلم ؟ أإلى عالمه الخاص الذى لا يجب أن يقتحمه غيره ؟ أم إلى العـــالم الذى يفرحه أن يصطحبنا إليه " ؟

أرحت رأسى على المقعد وقلت بصوت يتعثر من الضنى : " أفكر فى أمـــر هذا الرجل الذى استحلى مرارة قليلة ، أعقبتها حلاوة طويلة ، أفكر ياصاحبى فى

الرجل الذى وضع مصر فى مكانة تستحقها بين الكبار فى إحدى الحقب التاريخية " .

قاطعنى أحد الأقلام الشابة وفى لهفة سألنى : " من هذا العظيم الذى تقصده ياربيب العلم والأدب " ؟!

اعتلى البشر وجهى وقلت فى حماسة : " يا أيها الشاب النابه إنما أقصد (محمد على) مؤسس مصر الحديثة ، الذى قال عنه الحصفاء المعتدلون الذين يزنون الأمور بميزان العقل : " إذا كان لمينا الفضل فى توحيد القطرين ، ولثورة يوليو الفضل أن يحكم مصر أبناء مصر ، فإن لمحمد على الفضل فى إدخال مصر العصر الحديث " .

ورغم إنجازاته التى لاينكرها عليه إلا جاحد ، إلا أننا لا ينبغى أن نعقد ألسنتنا دون أن نقول : " إن لمحمد على إخفاقاته وعثراته ، إلا أننا سرعان مانعود لنقول كلمة حق وهى : " إن الرجل الذى ركب الأهوال لينال الرغائب " .

توقفت عن الكلام ونظرت حيث تنظر الأقلام ، فإذا هى تنظر إلى أبيها الشيخ ، وكأنها تستحثه على استحضار تاريخ محمد على ، الذى لم يكن يخشى على نفسه من محاكمة التاريخ ، والذى تحدث عنه المصرى وغير المصرى بإسهاب ، والناس – كعهدنا بهم – لا يتحدثون إلا عن رجلين : أحدهما سفاح لا يُرى إلا والدماء تقطر من يديه ، كالحجاج بن يوسف الثقفى ، وآخر ملأ الدنيا علماً وإصلاحاً واقتصاداً وآثاراً ، وخُضرة ونماء . ولو ترك وشأنه لفعل ما لا يفعله حاكم قبله أو بعده " .

تقدم أحد الأقلام الفتية ، فلما التقى بصره ببصر القلم الشيخ سـأله فـى حـب : " يا كاتب التاريخ ومنصف الرجالات ، ليتك تقص على أسـماعنا رأيـك فيمن قالوا : " إن محمد على كان يصنعُ المعروف لتحقيق منافع دنيويـة لـه ، وليس لصالح الشعب المصرى ، وأن مثله فيما يبذُلُ ويُعطى كمثل الصياد وإلقائه الحَبَّ للطيرِ ، لا يُريدُ بذَلَكَ نَفْعَ الطيرِ ، وإنما يُريدُ نَفْعَ نفسه " ؟

اعتدل القلم فى جلسته وبهدوء قال : " حتى نكون واقعيين فى حكمنا على الأمور ، لا نستطيع أن نبرئ محمد على ، أو أى حاكم على مر الزمان ، من أنه كان يصنع بعض مايصنعه لبعض منافع له ؛ لأنه بشر . ولكن من الخطأ الكبير ، بل من الجهل والعمى أن نقول : " إن مَن شق الترع وأقام القنـاطر والـسدود ، وشيد المدارس وجعل الدراسة بها بالمجان ، وشيد الدواوين والقصور ، وأنـشأ الموانئ ودور الصناعة ، واستحدث المعامل .. من قام باستثمار وتوجيـه خيـر مصر وعظمتها ، ومن قام بتقدير العمل وأهله ، وأسس قلم الترجمـة ، وعهـد بنظارته لرفاعة الطهطاوى ، وأرسل البعثات العلمية إلى الخارج ، وهـو الأمـى الذى لم يُحِط بقدر من التعليم .. من كون جيشاً من المحترفين ، بعـد أن عمـل جاهداً على تمصيره ، أنه فعل كل هذا لصالحه هو فقط ، وليس لصالح مصر " .

ثم تنهد القلم وفى حزن قال : " يا أيها الشاب السائل فلتكفّ عـن هـذه المقالة ، ولتعلم أن محمد على لو كان مصرياً خالصاً ، ما قيل عنه مثلما قلـت ، ولتناولته كتب التاريخ بفرحة ، كما تناولت من لم يفعل عُشر مـا فعـل بالطبـل والزغاريد .

يا أيها الشاب السائل فلتعلم أن الآثار والقصور التى أرسى قواعدها محمد على سوف تشهد له أنه كان يحب العمارة ، ولئن جحدت آثاره وانعقد لسانها عن الكلام فلسوف يشهد تاريخه ، ولئن جحد التاريخ هو الآخر ، أو حاول كاتبوه أن يحجبوا تاريخ الرجل المضىء، فسوف يصدقنا القول ثـرى قبـره ، فالتـــراب لايكــذب ، وكيف يكذب التراب ومنه خلق الإنسان " ؟

وهنا يقترب قلم فتي من القلم التاريخ ويسأله فى دهشة : " ولكنهم قالوا : " إنه كان مستبداً ، ودللوا على استبداده بقضائه على الزعامة الوطنية ، والإطاحة بالسيد(عمر مكرم) فى مهب الريح .. والزعماء كما تعلم هم الذين حملوه على أعناقهم فأجلسوه على كرسى حكم مصر ، وهم الذين أعـانوه بالمـال والـرأى وماشابه ذلك ؛ حتى يستتب حكمه .. فما قولك ياحكيم الأقلام ورسول البيان " ؟

قال القلم معقباً بعد ما خرجت من فيه زفرة ألم : " ويح الفتى ، أو يعلم أن كل إنسان حاكم أو محكوم بداخله نزعة استبدادية ، وأنها أشبه بشعور الخـوف الذى يكمن بداخل كل إنسان منذ اليوم الأول له فى الحياة إلى أن يقابل ربه ، وأنه يزيد عند البعض ، وينقص عند البعض الآخر ، وأن المتطرف فى هذا الشعور هو المريض ، بل المجنون .. والتاريخ الذى سطره المصريون ، وليس أحد أبناء أو أحفاد محمد على ، لم يحدثنا أنه كان مريضاً أو مجنوناً بداء الاستبداد .

ولو قام أحد الموتورين من غفلته ، أو من نومه العميق ، وأشار إلى أحد الحكام وقال لنا : إنه منزه عن الاستبداد ، فإننا نطالبه قبل أن ينطق ببنت شفة ، أن يسأل الأرض التى يقف عليها : مَن من الحكام ، فيما عدا الأنبياء والصالحين ،

لم يقتل أو يسفك الدماء البريئة فى بعض الأحيان ؟ مَن مِن الحكام لم يبطش ولم يزج بأبرياء إلى السجن ، لأنهم قالوا فيه كلمة حق ، أو خطؤوه فى بعض أحكامه الجائرة ؛ لأنه يملك مقاليد الأمور بيده ، وهم لا يملكون حتى أصواتهم " ؟

يصمت القلم قليلاً ، ثم يستكمل حديثه وهو يشير بسبابته إلى الأقلام ويقول : " تعلمون أن الفأس يُقطعُ به الشجرُ فينبت ثانية ، والسيف يقطعُ اللحمَ ، ثُمَّ يعُودُ فيندملُ ، واللسان لايندملُ جُرحُهُ ، ولا تُداوى مقاطعُهُ ، ولعل هذا من وجهة النظر الشخصية هو ما جعل محمد على يتخلص من الزعامة " .

شاهد الشيخ أن الأقلام راح بعضها ينظر إلى البعض الآخر ، وعلامات التعجب تعلو وجوههم ، حينذاك أسرع ليبدد دهشتهم ويذهب بعجبهم بعيداً فقال : " الحق أن الزعامة الشعبية هى التى هدمت سلطتها بيدها ، وأنها كانت تحمل بداخلها أسباب فشلها وانحلالها .. والحق أنهم لم يكونوا على وفاق وإخلاص فيما بينهم " .

وبينما الشيخ فى كلامه قاطعه أحد الأقلام الشابة فسأله : كيف ؟

أجاب القلم قائلاً : " أخذت أسباب التنافس والتحاسد والمطامع الشخصية تفرق وتباعد بينهم ، وسرعان مادبت فى نفوس أكثرهم نار الحسد التى تأتى على كل شىء تقابله ، وذلك من أجل ما حصل عليه عمر مكرم من منزلة هو جدير بها ، ورغم علمهم اليقينى أنه اشتهر بينهم وبين جل من يعرفونه بالتعفف وعلو النفس ، إلا أنهم نقموا عليه وأخذوا يكيدون له لإضعاف مركزه والنيل منه .. فلئن انتهزها محمد على فرصة للتخلص من الزعيم الشعبى عمر مكرم ،

الذى كان بمثابة الرقيب العتيد على أعماله ، فلقد انتهزها مــن قبلــه أصــحابه المشايخ للتخلص منه عندما جعلوا ما بينه وبين محمد على كالبحر الأُجاج " .

نظر إلىَّ القلم فرآنى متحفزاً للحديث ، إلا أننى أنتظر حتــى يفــرغ مــن حديثــه ، فلما أشار إلىَّ فى ودٍ أن أتكلم قلت فى أسفٍ : " استكمالاً لكلامك أيهــا الصديق القلم ، تحضرنى بعض الكلمات التى قالها الجبرتى ، يصف فيها المشايخ وتكالبهم على الدنيا ، وإهمالهم مدارسة العلم ، فبدأها بقوله : " صارت منــازلهم مثل بيوت الأمراء ، وصارت اجتماعاتهم تدور حول الأمور الدنيويــة ، وتركــوا العمل كلية ، هذا علاوة على التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة ، والــسباق المحموم على سفاسف الأمور ، وارتكابهم الأفعال المخلة بــالمروءة ؛ كارتيــاد أماكــن اللهــو " .

توقفت عن الحديث ، هنا لك قال الشيخ القلم فى جدية : " دعونى أخاطب ضمائركم بسؤالى : " أيكون محمد على مستبداً إذا قام فتخلص ممن لا يقيمــون للدين والوطن والزمالة وزناً ؟ فإذا بهم ينصرفون إلى بهرجة المرئيات ، تاركين مصالح الوطن تداعبها أهواء الحاكم ذات اليمين وذات اليسار ، عندما نظر حوله فلم يجد إلا عوداً فى حزمة ، والعود يتمثل فقط فى السيد عمر مكرم .

أوتعلمون أن محمد لم يكن ينظر إلى فئة معينة دون الفئات الأخرى ، ولا يلتمس تقويم ما لا يستقيم ، كما يفعل الحكام الآن .. بل كان دائماً ينظر إلى الفالح النابغ ، الذى يعطى مصر ، بصرف النظر عن كونه : مسلماً ، مسيحياً ، مصرياً ، غير مصرى ، فهذه أمور على مايبدو كانت لا تعنيه ، أو لعله رأى أن المصريون

لا يصلحون للمراكز القيادية ؛ لكثرة أحقادهم فيما بينهم ، وتكالبهم على الأمــور الدونية وابتلائهم بداء الكلام أكثر من تكالبهم وغيرتهم الحميمية علــى مــصالح الوطن " .

هنا قاطع أحد الأقلام صديقى الشيخ والدمع يراود أجفانه وســأله : " إذاً ينبغى أن يطول بكاؤنا على ماحدث للسيد عمر مكرم ، على يد أصحابه المشايخ ، ثم على يد محمد على " .

رأيتنى والهم يكاد يقتلع حنجرتى أفضّل التعقيب على القلم السائل ، فإذا بى بصوت خفيض حزين أقول : " لعلى أجزم أن محمد على قد أخطأ فى حق نفــسه وفى حق الشعب المصرى ، عندما نكّل بالسيد عمر مكرم ؛ لأنه يعلم أنه لا يعرف من دنياه سوى ثلاثة : الله ، والرسول ، والوطن .. وإن كــان الجبرتــى بقلمــه المسموم أراد أن يسفه من موقفٍ أقدم عليه عمر مكرم ، حين قام بختان حفيده ، ومن فرط حبه لابن بنته ، قام فدعا الباشا والأعيان وأرباب الحِرف ، وغيرهم إلى الزفة التى أقامها بهذه المناسبة .

وهنا قد يتبادر إلى الأذهان هذا السؤال : " هل ينتقص من قدر أو دين أحد الرجالات أنه احتفل بنجاح أو ختان أحد الأبناء أو الأحفاد ؟ وهل كان مطلوباً من الزعيم عمر مكرم أن يحمل الأحزان معه أينما ذهب ، وأن يتخذها خليلة له ، وأن يلقى بالأفراح فى غياهب الجب ، حتى يكون الزعيم الأمثل فى نظر الشيخ الجبرتى وبعض المشايخ " ؟!

تقدم قلم شاب عدة خطوات ، فلما أضحى أمامى قال : " ياصاحب القلـــم ، أعلم أن الوفاق والوئام واحترام كل منهما لقدر الآخر كان موجوداً ، إلى أن قطع بينهما الكذوب المحتال ، حتى يحملهما على العداوة والبغضاء .. كمـــا أعلـــم أن عمر مكرم لم يكن رجل حرفته السياسة ، بل كان رجل دين ، ومن سماته أنه كان كالسيف لا يعرف المواربة ، فكيف بمن كان مثله أن يتعامل مع رجل من طـــراز محمد على يأكل ويشرب بالسياسة ، ويتخذها وسادة له " ؟

اعتلى السرور وجهى ووجه صديقى القلم ، من كلمات القلم الشاب الـــذى صار هو الآخر يتحدث بالحجة كوالده الشيخ ، وإذا بى أقبله إعجاباً به ، وسرعان ما قلت له : " نعم عمر مكرم كان كما وصفت ، وزد على ذلك أنه كان يحمل لأبناء الوطن الحب الكبير ، ولعل هذا هو السبب الرئيسى وراء الخلاف الذى وقع بينـــه وبين محمد على " .

فلما عاود القلم سؤالى قائلاً : كيف ؟ استكملت الحديث : " أذكر أن السيد عمر مكرم وقف بمفرده بجانب أبناء الوطن البسطاء عندما كثرت المظالم التـــى كان يرتكبها الجند تحت سمع وبصر الباشا ، هذا بخلاف الغرامات التى فرضـــت على الأهالى بحجة مواجهة الحملة الإنجليزية وتنفيذ مشروع ســـد الفرعونيـــة ، وغيرها ، وهى الأسباب الجوهرية التى دفعت عمر مكرم إلى مخاصـــمة محمـــد علـــى ، من منطلق أن طالب الحقّ هو الذى يُفلحُ ، وإن قُضى عليـــه ، وطالـــب الباطل مخصوم ، وإن قُضَى لهُ .

وبحسبى أن رفض عمر مكرم مقابلة الباشا ، وإسراع كل مـــن : الـــشيخ الدواخلى والمهدى والشرقاوى فى مقابلة محمد على بالقلعة ، بعدما نقضوا العهد الذى قطعوه مع السيد عمر مكرم ، هو خير دليل على ذلك .. ناهيكم عن فشل كل السبل التى سلكها محمد على لإرضاء عمر مكرم .. إلى أن وصل الأمر إلى حافة الهاوية ، عندما طلب عمر مكرم أن ينزل الباشا بنفسه من القلعة ، حينذاك يجتمع الاثنان ببيت الشيخ السادات ، وهو الأمر الذى رفضه بشدة محمد على وقال قولته الشهيرة : " إنه بلغ به أن يزدرينى ويأمرنى بالنزول عن محل حكمـــى إلى بيوت الناس " .

ولعل محمد على كان محقاً فى هذا الموقف ؛ لأننا لم نعهـــد أو نـــألف أن ينزل الحاكم من محل حكمه ، أو بالأحرى من برجه العالى إلى زعيم أو وزيـــر ، ولكن الذى عهدناه وألفناه أن الزعيم أو الوزير هو الذى ينتقل ويصعد حيث يطلبه الحاكم .

ورغم امتعاض محمد على من طلب عمر مكرم ، إلا أنه نزل إلى بيت ولده إبراهيم بك الدفتردار ، وطلب القاضى والمشايخ .. وسرعان ما أرســـل القاضـــى رسولاً من طرفه ، وأرسل محمد على أيضاً رســـولاً مـــن طرفـــه لعمـــر مكـــرم للحضـــور ، حتى يتشاور معه .. فرجع الرسولان بخفى حنين ، وأخبـــرا محمـــد على أنه شرب دواء ، ولا يمكنه الحضور فى هذا اليوم .

هنا اشتد غيظ محمد على ، الذى سرعان ما أحضر خلعة وألبسها للشيخ السادات على نقابة الأشراف ، وأمر بكتابة فرمان بخروج عمر مكرم من مـــصر

إلى دمياط .. وخرج الزعيم الشعبى والناس من حوله يتباكون ، وبخروج السيد عمر مكرم من مصر أغلق باب الزعامة الشعبية ، وتفرق المشايخ شذر مذر هنا وهناك ، وخمدت أصواتهم بالحياة " .

ساد الصمت دقائق أو تكاد بينى وبين الأقلام ، وكأن كلاً منا بات بداخله سؤال صار يؤرقه ، وهو بين الفينة والفينة يود أن يطرحه على مسامع الآخرين .. وما فتئ أن تقدم أحد الأقلام الطفلة وراح ينظر إلىّ وإلى صديقى القلم ، وكأنه لا يدرى على مَن يطرح السؤال ، إلا أنه سرعان ما أطلق للسانه العنان وقال : " لو طلبت من أحدكما أن يحدثنى فى سطور قليلة عن مذبحة القلعة ، أيروح فيدين محمد على ، أم يتلمس له الأعذار " ؟

دبت الرعشة فى أوصالى ، وتحشرج صوتى داخل حنجرتى وصديقى القلم يهمس فى أذنى أن أعقّب على السؤال ، حينذاك قلت فى غصة : " مجزرة القلعة ، أو مذبحة القلعة كما وردت فى كتب التاريخ ، هى الصفحة الحالكة السواد فى حياة محمد على ، وسوف تظل كذلك إلى يوم الدين .

ولو تحدثنا بشىء من الإيجاز عن بداية المجزرة لقلنا بقلم لا يعرف المواربة : " نعم لقد أدرك محمد على منذ بواكير أيامه فى مصر ، أنه فى حاجة إلى مصر ، وأن مصر فى حاجة إليه .. كما أدرك أن المماليك كانوا قوة سياسية لا يستهان بها ، سمحت الدولة العثمانية لها بالتواجد على الساحة السياسية المصرية ، فاستغلوا هذا السماح وشكلوا دولة داخل دولة ، حتى صارت قوتهم وتحركاتهم تفزع محمد على فى النوم واليقظة .

وحاول محمد على استمالة المماليك فلم يفلح ، فحاربهم ، فلم يكن النصر المؤزر الذى كسر شوكتهم ، وهنا حاول المشايخ السعى فى الصلح بين الطرفين ، ولكن ظل الصراع قائماً بين الطرفين كما هو .. ويبدو أن محمد على كان (مكشوفاً عنه الحجاب) ، فشاهد وقرأ المذابح التى اكتوى بنارها أبناء الوطن العربى مثل : صبرا وشاتيلا ومدرسة بحر البقر ، وغيرها ، فقفزت فى رأسه فكرة مجزرة القلعة ، فأسرع وحدد لها الزمان والمكان والطريقة .

ولو لم يدع محمد على المماليك إلى حفل تنصيب ابنه طوسون على إمرة الجيش المتوجه إلى الحجاز ، ولو أن ميدان القتال كان الميدان الحقيقى الذى يتنازل ويتصارع فيه الرجال إلى أن تكون الغلبة لإحدى الفئتين ، ما كانت وصمة العار التى لحقت ، بل سبقت محمد على إلى قبره وإلى تاريخه ، فلا شك أنها دنست تاريخه المجيد .

وهنا سكت قليلاً ، ورحت أجول ببصرى أرجاء المكان ، وعلامات الأسى والأسف تعلوان وجهى ، إلا أننى أسرعت أستكمل الحديث قائلاً : " ولو تركنا الشيخ عبد الرحمن الجبرتى يصف لنا هذه المجزرة ، التى مازالت أحداثها تؤلم قلوبنا إلى الآن لسمعناه يقول :

وأسرف العسكر فى قتل المصريين وسلب ما عليهم من الثياب
ولم يرحموا أحداً ، وأظهروا حقدهم ، وضبعوا فيهم وفيمن رافقهم
متجملاً معهم من أولاد الناس ، وأهالى البلد الذين لبسوا
زيهم لزينة الموكب ، وهم يصرخون ويستغيثون ، علهم يغاثوا ،

فمنهم من راح يصرخ ويقول : أنا لست مملوكاً ولا جندياً ، وآخر
يقول والدمع يلهب عينيه : أنا لست من قبيلتهم ، فلم يرقوا لصارخ
ولا شاكٍ ولا مستغيث .

وتتبعوا المتشتتين من الفارين فى نواحى القلعة وزواياها ، والذين هربوا ودخلوا البيوت .. ثم قبضوا على من أمسك حياً ولم يمت بالرصاص ، فسلبوا ثيابهم وجمعوهم إلى السجن ، ثم أحضروا المشاعلية[1] لرمى أعناقهم فى حوش الديوان واحداً بعد واحد . ونهب فى هذه الحادثة من الأموال ما لا يقدر قدره ويحصيه إلا الله سبحانه وتعالى ، وقتل فى هذه المجزرة أكثر من ألف إنسان ، من أمراء وأجناد وأبرياء ، لا لهم فى العير ولا لهم فى النفير .

أردت كما أراد صاحبى القلم أن نطوى صفحة الدم والقهر .. صفحة مذبحة القلعة ، وأن نفتح صفحة الصناعة ، فمن يدرى لعلها تدخل شيئاً من البهجة والسرور بعد طول حزن .. وما هى إلا دقائق أو تكاد ، ورأيت الشيخ ينظر إلى الأقلام ويسألهم : " ماذا تعرفون عن الصناعة التى كانت تراود محمد على فى أحلامه ، بل فى حلّه وترحاله ، حتى صارت حقيقة لا خيالاً " ؟

تقدم أحد الأقلام الفتية وقال فى بشرٍ : " إن أذنت لى أبانا الشيخ قلت بلسان صدوق وقلب عقول : " إن محمد على أدرك من الوهلة الأولى ما لم يدركه الحكام قبله ، وما لم يدركه الحكام بعده ، وهو أن العلم والثقافة ، وإرسال البعثات

---

(١) المشاعلية ، مفردها مشعلى ، وهو من يقوم بإعدام الخارجين عن القانون .

إلى الخارج ، والصناعة هى الانفتاح الحقيقى لمن يريد أن يرتقى بـــشعبه ، وأن يضعه فى مصاف الدول الكبرى .

وذلك من منطلق أن العلم والثقافة يجلبان التكنولوجيا والتقنيات العالية إلى داخل البلاد ، والصناعة هى الاكتفاء الذاتى والتصدير ، وهى ولاشك التى تعمـــل على رفع مستوى المعيشة ، وهى الدواء السحرى للقضاء على البطالة ، بل هى الشرف والعزة للدولة التى تريد أن يتدثر أولادها بهما ، وهى أيضاً الترياق الذى يغنى عن اللهاث وراء المعايش ، كما تلهث الكلاب فى الهجير والحر القائظ ، من شدة الظمأ الذى حل بها ، وهى والله أشد وأنكى من هذا وذاك " .

ثم يصمت الفتى قليلاً ، وسرعان ما يستكمل حديثه فيقول : " أتدرون مـــا الفرق بين حاكم وآخر ؟؟ وهنا تتسع الحدقات وتشرئب الأعناق ، وتنطلق الألسنة قائلة : اللهم لا نعرف ؟ فيقول : " هناك حاكم تملك دولتـــه المـــال ، إلا أنـــه لا يستطيع أن يوظفه ويستغله لصالح أبناء وطنه ، فترونه ومن حوله يبعثرونه هنا وهناك بلا حساب أو رقيب ... أما الحاكم الآخر فيملك كما كبيـــراً مـــن البـــشر ، والبشر كما نعلم يملكون الإمكانيات والمواهب ، إلا أن الحاكم لا يدرى ولا يعلـــم كيف يوظف هذه الإمكانيات والمواهب لصاح البلاد ، وكل الذى بات يشغله ويؤرقه أن زيادة البشر همّ ونقمة ، ولـــو أن هـــذا الحـــاكم أحـــسن اســـتغلال مـــوارده الاقتصاديـــة ، كما أحسن استغلال البشر ، لصارت مملكته أو دولته قوة عظمـــى فى جميع المجالات ، وهذا ما فعله محمد على فلم يخفق فيه قدر لحظـــة ، كمـــا أخفق فيه حكـــام آخـــرون " .

ثم توقف الفتى عن حديثه ، عند ذلك تحمس القلم الشيخ الـذى أسـرع فقـال : " تطورت الصناعة فى عهد محمد على تطوراً كبيـراً ، للدرجـة التـى أصبحت معها عماد الدولة ومصدر قوتها .. ولعلى أرى أن اهتمامه كان منـصباً على التحرر من الارتباط والتبعية للدولة العثمانية ، وحينذاك يوفر كل احتياجاته ، ومن ثم لا يظل تابعاً للدول الكبرى ، أو مستنزفاً لموارد الدولة ، كما يحدث الآن نتيجة الاستيراد والدعم .

ومما يحمد لمحمد على أنه عندما أراد النهوض بالصناعة المصرية نظـر أول ما نظر إلى أن معظم الخامات المستخدمة فى الصناعة كانت موجودة بمصر ، هذا بجانب الثروة البشرية القادرة على تحمل قيادة الصناعة المـصرية ، والتـى باتت تنظر إليها حكومات الدول النامية اليوم علـى أنهـا الطامـة الكبـرى ، أو بالأحرى المرض العضال الذى ينخر فى جسد الدولة ، ولو قلنا بلسان محايد إنـه سوء تخطيط ، فربما لا تعجب هذه الكلمة البعض .

ومن البديهى أن تجعل الثـورة الـصناعية ، أو بمعنـى آخـر الفـورة الصناعيـة ، محمد على يفكر بجدية فى بناء قاعدة صناعية ضخمة للأسلحة التى مكنته من بناء جيش قوى ، صار قوامه ٢٠٠ ألف جندى ، كما صار قادراً على خوض المعارك وهزيمة جيوش دول كبرى فى البر والبحر ، وليس هذا فحسب ، بل تكوين إمبراطورية مصرية مكونة من مصر والسودان والحجاز والشام وجزء من تركيا .

ولم يقعد محمد على مكتوف الأيدى ، أو ترك عظائم الأمور وراح يتتبع سفاسف الأمور ، بل أخذ يسابق الزمن ، فإذا به يسعى سعياً حثيثاً لاستقدام الخبرات والمهارات فى مختلف الصناعات من الدول الأوربية ، وهو يبغى من وراء ذلك إعداد جيل من الكوادر المصرية المختلفة ، يكون قادراً فى المستقبل القريب على تحمل قيادة النهضة الصناعية فى مصر " .

هنا يقاطع أحد الأقلام القلم الشيخ ويسأله : " وما نوع الصناعات فى ذلك العهد " ؟

فيعتدل الشيخ فى جلسته ويقول : " انقسمت الصناعات الجديدة التى أدخلها محمد على إلى ثلاثة أقسام : الأول : الصناعات التجهيزية ، والثانى يتمثل فى الصناعات التحولية ، أما القسم الثالث فهو الصناعات الحربية ، حيث أسس محمد على أول ترسانة ، أو دار للصناعة بالقلعة لتكون وفق أحدث النظم الأوربية .

وبحسبى أن ابن خلدون استقرأ واقعنا المرير الذى نعيش فيه الآن على التقليد الأعمى ، بعد ما أغضضنا الطرف عن العلم وأهله ، وألقينا بصناعة التكنولوجيا فى غيابات الجب فقال : " إن التقدم الصناعى فى أى دولة يشكل ثورة ثقافية ، وإذا به فى مقدمته يصف التصنيع بأنه أحد أنماط العمران المتقدم الذى يسفر عن اجتماع إنسانى متقدم ، يوفر للإنسان مكانة كريمة ، ويمنح العقل حرية تنتقد الشائع والمألوف وتنفر من النقل والتقليد ، وتناقش الواقع بأدوات فكرية عصرية " .

وعلى الرغم من النهضة الصناعية التى تحققت فى عصر محمد على ، إلا أنه يؤخذ عليه : احتكاره للعديد من الصناعات الوطنية ، الأمر الذى ترتب عليه العديد من الآثار الاجتماعية مثل : فقدان آليات الحراك الاجتماعى الصاعد .

ولكن لا يمارى عاقل فى أن النهضة الصناعية الكبرى التى أرسى دعائمها محمد على قد ساهمت ولا شك فى تغيير نمط حياة السواد الأعظم من أفراد المجتمع المصرى ، خاصة الطبقة العاملة التى تحسنت ظروفها إلى حد كبير بتحسن العمل الصناعى وتطوره ، وهو للحق والتاريخ الشىء الذى أفلح فيه محمد على ، وأخفق فيه الكثير من الحكام " .

* محمد على وأقباط مصر :

نظرت إلى صديقى القلم فوجدت الإرهاق يبدو على وجهه ، فأشفقت عليه ، وسرعان ما قلت للأقلام الشابة والفتية : " أرى أن ينتهى حديثنا عند موقف محمد على من أقباط مصر ؛ لأن الحديث عن الرجل يحتاج لعدة كتب ، وليس لعدة وريقات لا تزيد فى مجملها عن قشور فى حياة الرجل .

وافقنى صديقى القلم الرأى ، وإذا بالرقاب قد تطاولت ، والآذان صارت شغوفة لسماع شيخها وهو يقول : " تلاشت فى عهد محمد على الفروق التى كانت سائدة بين الأقباط والمسلمين فى العصور التاريخية السابقة لعصره " .

توقف القلم قليلاً ، وكأنه راح يتذكر شيئاً ، وسرعان ما استكمل حديثه قائلاً : " والحق الذى يحسب لمحمد على ، أو بالأحرى يحمد عليه : أنه اعتبر

جميع المصرين على اختلاف مذاهبهم وأجناسهم سواسية ؛ أى أبناء وطن واحد ، لهؤلاء مثل أولئك فى الحقوق والواجبات ، ولا يقدم على هذا إلا ذو عقل راجح .. فإذا به يسرع فيوزع خدمة الوطن على أهله ، كل بحسب ماله من أهلية وخبرة " .

وقد يسألنى أحدكم : كيف ؟ فأقول : " خص القبط بما امتازوا به من الأعمال الحسابية وضبط الإيرادات والمصروفات ، وخص المسلمين بالمجالس والأعمال الإدارية ، وعندما قام بالتوسع فى الدواوين ، زاد من عدد الموظفين الأقباط فى الدوائر الحسابية ، وهذا يعنى أن محمد على كان يسبر أغوار الآخر فيعرف قدراته ، وعندما يعرفها يسرع فيوجهه إليها لخدمة الوطن ، ولعلى أجزم أن مافعله محمد على منذ حوالى مائتى سنة هو الذى يفعله الأجانب الآن ، لذلك نراهم يتقدمون ، فى حين تتخلف شعوب الدول النامية ، لأن الأجانب يضعون الرجال المناسبين فى الأماكن التى يستحقونها ، أما هؤلاء فتركوا لأهوائهم العنان على حساب صالح الوطن .

ولا يمارى عاقل أن ما فعله محمد على قد خلق روح وطنية قوية ، أساسها حب الوطن والانتماء إليه ، بالإضافة لبث قيم التسامح الدينى ، وتقبل الآخر ؛ لأنه ابن لهذا الوطن ، لهذا أصدر محمد على عدة قرارات يعتبرها كل ذى بصيرة قرارات جريئة لا يقدم عليها إلا حاكم ذو عقل وبصيرة ، وتتمثل هذه القرارات فى الآتى :

- جعل محمد على أقباط مصر مخيرين فى ارتداء الملابس ، بعد ما كانت مفروضة عليهم من قبل السلطنة العثمانية .. عند ذلك قام الإخوة الأقباط بخلع الزى الأزرق والأسود الذى كان مفروضاً عليهم .
- سمح محمد على لأقباط مصر بركوب الخيل والبغال .
- كما سمح لهم ببناء الكنائس وممارسة الطقوس الدينية ، وذهب الأمر به إلى أنه صار لا يرفض لهم أى طلب لبناء أو إصلاح أى كنيسة .
- كذلك سمح لهم بحمل السلاح ، وهو الأمر الذى كان مرفوضاً قبل محمد على .
- كان محمد على باشا هو أول حاكم مسلم يمنح موظفى الدولة من الأقباط رتبة البكاوية عرفاناً بخدماتهم لوطنهم مصر ، كما اتخذ المستشارين من الأقباط .

وعندئذ تنهد القلم وتثاءب وقال فى ودٍ : " مازال بجعبتى الكثير عن هذا الرجل الذى أحبه كقلم لا يعرف المواربة ، وكيف أفعلها فى هذا المقام ، وهذا الرجل إنجازاته واضحة وضوح الشمس .. كيف أغفل إنجازاته وهو الذى قال بأعلى صوته ، بل بصوت الواثق : أنا لا أهاب من محاكمة التاريخ ، وكيف يهاب من التاريخ رجل بحجم محمد على ، لو وضعنا إنجازاته فى كفة الميزان ، ووضعنا سلبياته كبشر فى الكفة الأخرى لرجحت كفة إيجابياته ، فى حين أننا لو أتينا بعشرات الحكام مثله ، لرجحت كفة سلبياتهم وسيئاتهم " .

ثم توقف القلم الشيخ عن حديثه عن محمد على والفجر لا يزال نائماً فى حضن أمه .

*****

محمد فريد

رأيتنى شغوفاً إلى معرفة من هم الرجالات الذين تأثر بهم القلـم تـأثراً كبيراً فى حياتهم ، لأنهم اتخذوا من أنفسهم سفراء لأوطانهم بغير راتب ، ومن أقلامهم مدافع تذود عن الوطن ، ومن ألسنتهم مذياع ينقل بصدق قضية بلـده فى الداخل والخارج ٠٠ وفى سبيل ذلك حُرِم من زوجه وحرثه حتى الممـات ، باع كل ما يملك، ليس من أجل الطعام أو الشراب ، بل لينفق علـى عروسه مصر التى يؤمن بها حرة، غير مكبلة بهجير ولظى الاستعمار ٠

عندما رآنى القلم على هذا الحال ، أدرك بخبرة من حلب الدهر أشطره ، أن ثمة سؤالاً يدور بخلدى ٠٠ حينذاك قال بغير تردد : " أيها الصديق هات ما عندك ، فكم أنا تواق الآن للتحدث معك عن بعض هؤلاء الذين لولاهم لأصبحت الدنيا من حولنا مواتاً بواراً " ٠

شعرت بالسعادة تدب فى أوصالى من كلمات القلم الشيخ ، وسرعان ما اقتربت منه وقلت له : " من الناس من تمضى به الحياة وانية غير حفيـة ، فإذا مضى عرف الناس قدره ولهجو بذكره ، ومن الناس من يعظم فى الحيـاة جاهه ويشيع ذكره ، فإذا مضى غفل عنه التاريخ ونسيه الناس ، ومن النـاس من يذكر بالفضل وينبه بالمثل الصالح ويؤثر بالحمد ، وإن لم يحظ بجاه الحياة وسلطان الحكم ، فإذا مضى عرف فضله وخلد ذكـره ٠٠ ولعلـك يـا كاتـب التاريـخ ، يامنصف الرجال ، ياشفيف النفس تدرك – كما أدرك – أن " محمد

فريد " هو واحد من هؤلاء ، لذلك أكون فى غاية السعادة ، إن قمت الآن وقلبت صفحات عقلك ، وتحدثت عن هذا الرجل ، بما يمليه عليك ضميرك " ٠

تنهد الشيخ وتحشرج صوته ، وسقطت على خده الجميل دمعة ساخنة حزينة ، تنبه على أثرها ، فراح يقول وأنا أصغى إليه : " على قرب عهد الرجل منا، وشهرته فى التاريخ ، التى فاقت حساب الحاسبين ، إلا أن أكثر المصريين لا يعرفون عنه أكثر من اسمه ، وأنه أحد زعماء وادى النيل ٠

والحقيقة أن هذا الرجل الفريد ، المدعو محمد فريد ، هو أحد الرجالات المصريين ، بل هو البطل المصرى الذى كره الشهرة فإشتهر ٠٠ وهو الذى ضحى فى سبيل الوطن بكل ما يملك من صحةٍ ومالٍ وراحة ٠٠ ومن سماحته أنه جعل حقوق زوجه وأبنائه وحقوق نفسه ، وراء حقوق الوطن ، فدلّ بما قدمه على أن التربة المصرية العفية ، لا تصلح إلا لإنتاج أشرف وأكرم الرجال " ٠

سكت القلم قليلاً ثم قال فى حماسة ، بل فى حب مرة أخرى : " وللرجل فى عنق كل مصرى دين ، وله فى تاريخ مصر الحديث مواقف ، جعلت للمصريين قضية ظاهرة المعالم ، عرفها المصريون وآمن بها الغربيون ، واعترف بها الجاحدون " ٠

تقدم أحد الأقلام الشابة من الشيخ وقال : " ليتك تَقُصُّ علينا قدراً قليلاً عن نشأته ، فربما كانت نشأته تنبئ عن زعيم ، وهو ما زال فى ميعة الشباب ونحن لا ندرى ، وربما غير ذلك ؟ " ٠

فى سرورٍ قال الشيخ معقباً : " كان أبوه أحد العظماء الذين يحملــون رتبة الباشوية ، وكانت أمه كريمة لأحد كبار أغنياء العاصمة وتجارها ، وكانت بجانب ذلك سيدة فاضلة ٠٠ ولو قُمْنا ووضعنا فريداً وهو مازال صبياً أو فتـــى فى إحدى كفتى الميزان ، ووضعنا فى الأخرى آلافاً من صبية وشباب اليـــوم ، لرجحت كفة محمد فريد ٠٠ ولوجدنا أنه رغم حسبه ونسبه لم يركبه الغـــرور الذى يركب كثيراً من أبناء الأغنياء اليوم ، ولم يشغله النعـــيمُ عـــن تحـــصيل دروسه ، ولم تُغير النعمةُ من طِبَاعه ، لكنه بقى كريم الخُلـــق محبوبـــاً مـــن الجميـــع ٠٠ فإن كان هذا حال الفتى وهو مازال يستقبل الحياة ، فماذا عنـــه عندما اصطدم بسياج العمل الحكومى والوطنى ؟

قضى محمد فريد تسع سنوات فى الحكومة ، وكان مركزه يؤهله لتولى منصب كبير لولا أن المقادير كانت تُعِدُّهُ للزعامة الوطنية ، لخدمة وادى النيـــل من منبعه إلى مَصَبِّه ٠٠ لكن فريداً لم يهو النعيم ، ولم يتشبث بالمنصب ، بل فضَّل الســـير فـــى طريـــق كُلُها شوك وحربٌ وجـــلادٌ ، طريـــق بهـــا مـــشقةٌ وجهـــادٌ ، فيها سيطرةٌ وحرمان ، فيها نفىٌ وتشريدٌ ، إنه طريق الحرية ، الذى أوله جهاد وآخره استقلال" ٠

قاطع أحد الأقلام الفتية الشيخ المتحدث وسأله فى لهفةٍ فقال : " أَوَكان محمد فريد كأى شاب يشغله جمال الفتيات ، أم أنه انصرف إلى جمال من نوع آخر" ؟

فى بشر قال العجوز القلم للفتى السائل : " لم يتجه محمد فريد كغيره من الشباب فى جل العصور إلى الفتيات الحسان يصفُ جمالهن الفتَّان ، والكأس والطاس ، وليالى أبى نواس ، وكيف يفعل ذلك؟ وليس لديه وقفة للمواربة ، كيف يفعل ؟ وهو الذى قرر بالأمس قراراً لا رجعة فيه وهو : أن يخلع رداء المحاماة ، ليلبس رداء الجهاد ، وأن ينصرف إلى الوطن المظلوم ، والحق المهضوم ؛ لأنه خلق ليكون محامياً عن أمةٍ ، لا محامياً عن فرد " ٠

رأى أحد الأقلام الصغيرة أن شيخ الأقلام سكت عن الكلام ، فخشى أن يكون قد اكتفى بهذا القدر عن الزعيم ، ولكن سرعان ما حدثته نفسه قائلةً : كيف يكتفى وحب فريد قد حفر بداخله نهراً عذباً فراتاً ، عند ذلك توجه إليه قائلاً : " وماذا بعد يا أبانا الشيخ ؟ " ٠

قال القلم فى فرحةٍ وهو يعود بظهره للوراء : " بعد أن توج فريداً رئيساً للحزب الوطنى خلفاً لصديق عمره " مصطفى كامل " ، قابله الخديوى " عباس " بسراى عابدين وهنأه ، وقال له بلسان الثعلب : إن وجود مثلك على رأس الحركة الوطنية مفيد جداً ، ولا يمكن للإنجليز أن يقولوا عنك : إنك طالب شهرة أو مال أو وظيفة٠٠ ولكن مع مرور الأيام والأحداث ، رأى الخديوى أن فريداً ليس من المطيعين لأوامره طاعة بلا نقاش ، فالتزم الخديو الصمت ، وأخذ يدُس له الدسائس لإسقاطه من ناحية ، ويظهر له التودد من ناحية أخرى "٠

أثــار صديقــى القلم بداخلى الحماسة والحب تجــاه هـــذا الزعيـــم الذى حصد احترام من بالداخل ومن الخارج ، ورأيتنى أنظر إلى الشيخ ، ثم إلى الأقلام التواقة لسماع تاريخ فريد ، وكأننى أردت أن أنثر عليهم الحــب أولاً ، ووجدتنى أقول فى ودٍ : " قد يملأكم العجب حين تعلمون أن محمد فريــد هــو المصرى الأول الذى نادى بجعل التعليم الابتــدائى إلزاميــاً بالمجــان للبنـــين والبنـــات ٠٠ وكان ذلك فى خطبة المؤتمر الوطنى عام ١٩١٠ م ، عندما قال بلسان لا ينطق إلا بالصواب والحكمة : "يجب أن يكون قــصدنا جميعــاً هــو الوصول لجعل التعليم الابتدائى إلزامياً ومجانياً لكل مصرى ومصرية ٠٠ وأقول مجانياً ؛ لأن جعله مجانياً للفقراء ، وبأجرةٍ للأغنياء ، فيــه جــرحٌ لعواطــف الفقراء من التلاميذ الذين يرون أنفــسهم محتقــرين فــى نظــر إخوانهـــم ومعلميهـــم ٠٠ ثم يستمر فريد يدافع عن مجانية التعليم إلـــى أن يقــول فـــى الخطبة ذاتها : " حتى يشب التلاميذ على حب المساواة ، ويعرفوا منذ نعومـــة أظفارهم أنه لا تفاوت بين الناس إلا بخدمة الأمة ، وأن أقربهم إلى الله أتقاهم لا أغناهم"٠

عندما رآنى القلم قد فرغت من حديثى ، تنهد فخرجت من فِيــهِ زفــرة ألــم ، حينذاك أدركت أن هناك هماً أراد أن يدفعه عنه ٠٠ أسرعت وفى لهفةٍ بادرته قائلاً: " يا أبا التاريــخ ، يا رمز الإبداع ، يا خليل الورقة ، هون عليك ، فربما إن أفصحت عما بداخلك من همّ ، ورحت فألقيته عن كاهلك ، واستفرغه قلبك ، شعرت بالراحة"٠

وربمـــا يكـــون صديـــقى قـــد عمل بنصيحتى ، عندما نظـــر إلىَّ وقال فى أسفٍ : " أتدرى يا صاحبى أن محمد فريد سجن لأنه قال : " إن الشِّعْر أَفْعَل المؤثرات فى إيقاظ الأمم من سباتها ، وبَثّ روح الحياة فيها ، كما أنـــه مـــن المشجعات على القتال والإقدام ، لذلك نجد الأشعار الحماسية من قديم الزمـــان شائعة لدى العرب ، وغيرهم من الأمم المجيـــدة كالرومـــان .

والتهبت حماسة فريد الذى استكمل حديثه فقال : فعلى حضرات الشعراء أن يُقْلِعوا عن عادة وضع قصائد المديح فى أيامٍ معلومةٍ ، ومواسم معـــدودةٍ ، وأن يستعملوا هذه المواهب الربانية العالمية فى خدمة الأمة وتربيتها ، بدل أن يصرفوها فى خدمة الأغنياء ، والتملق للأمراء ، والتقـــرب مـــن الـــوزراء ، فالحكام زائلون ، والأمة باقية ، والسلام على من سمع ووعى ، ووفق لخدمة بلاده فسعى ، فإن سعيه سوف يُرى ، ثم يُجْزاهُ الجزاءَ الأوْفَى " .

يا له من مشهد تذوب منه قلوب الجبارين رحمة وحناناً ، والقلم إذ ذاك يسابق دمعه ، ودمعه يسابقه ، إلا أن دمعه غلبه فسبقه ، وهو يقـــص علـــى أسماعنا مشهداً ، بطله خلق ليكون زعيماً ، أو لعل صاحبى القلم من فرط حبه للرجل أخذ يرثيه حين قال : " يا لهُ من رجل ، ويا لهُ من والدٍ ، يا لـــهُ مـــن زوجٍ ، يا لهُ من وطنى ، كيف سافر فى قطار الصباح ، ولم يتأرجح به التردد إلى قطار المساء [1]؟ كيف ترك : عبد الخالق ، وحميدة ، وفايقة ، ولطيفـــة ، وهانم ، لقد قَبَّلَهُن نائمات ، وودَّعهُنَّ غافلاتٍ ، وترك الأمر لله !!!

---

[1] محمد فريد ، سلسلة العظماء ، محمد عطية الإبراشى ، مكتبة الأنجلو المصرية .

لم يخمد قلمه عن الدفاع عن وطنه مصر ، ولم ينم لسانه فى فمه قيد لحظة إلا مع النفس الأخير فى حياته الحافلة بالعطاء الزائد لدرجة الفيضان والطوفان ٠٠ صمت القلم الشيخ قليلاً عن حديثه ، ثم نظر إلىَّ وقال بصوت حزين : " وأقسم لك ياصاحب القلم ، ثم نظر إلى الأقلام وقال :

وأقسم لكم أيها الأبناء : أنه لو قامت أمةً من الأمم بهذا العمل ، وأوفدت مندوبين عنها ، وأنفقت فى سبيل ذلك ملايين الجنيهات ، كما فعل فريد ، لحُسِبَت فى عِداد الأمم المجاهدة ٠٠ فكيف لو قام فرد واحدٌ هو محمد فريد ؟ فردٌ طاردته حكومته وخَيَّرته بين السجن والنفى" ؟ ثم أجهش القلم فى البكاء ٠

تملكنى الفزع كما تملك الأقلام ، وسرعان ما طلبت من صديقى أن يكتفى بهذا القدر من الحديث ٠

قال شيخ الأقلام وعلامات الإرهاق الشديد تعلو وجهه : " لن أكف عن حديثى إليكم قبل أن أُسمعكم الكلمات الأخيرة التى قالها محمد فريد بلسانه ، وسطرتها أنا بمدادى لتكون خير شاهد على زعيمٍ خرج من هذه الأرض ٠٠ قال : محمد فريد وهو فى النزع الأخير :

'' أكتبُ هذه السطور اليوم وذكرى ١٤ سبتمبر ١٩٨٢

تملأ فؤادى حزناً وأسى على مصرنا العزيزة

وما انتابها من الحوادث القاضية على استقلالها

ولكننى أرى فجر الأمل يُرْسَمُ على الأفق خطاً من النور اللامع

فسلامٌ عليك أيها الوطن المُفدى

وسلامٌ على النيل وواديه

سلامٌ على الأهرامِ وبانيها

سلامٌ على خُدَّامِ مصر المخلصين

سلامٌ على شهداء الحرية (١) ٠ "

وأسلم محمد فريد الروح وهو قرير العين ، وفى قلبه وعينيه وعقله وخاطره لا يوجد سوى الله والوطن ٠

*****

---

(١) تنسى الرجع السابق ، ص ١١٢

حفنى ناصف

نظرت إلى صديقى اليراع العجوز ، فإذا به وقد اغرورقت بالمدامع عيونــه، وظهرت عليه شجونه ، حينذاك رأيتنى أقول له فى ودٍ :" ليرقأ دمعــك ، وليهــدأ روعك ، ثم سألته : " فِيمَ كل هذا الحزن الذى نراك عليه الآن " ؟

يتنهد القلم وهو يشير بعصاه إلى بعيدٍ ويقول : " تذكرت فى تلــك اللحظــة شمعة من شموع مصر، فضّلت فى سماحةٍ أن تحترق لتنير ما حولها ، من أجل مصر وأبناء مصر .. بل تذكرت رجلاً قال عنه عباس محمود العقاد : هو الأديب الذى ما نظنه معروفاً حق المعرفة إلى الآن ، رغم أنه كان أميــراً مــن أمــراء الفكاهة ، غلاّباً فى ميدان البديهة الحاضرة والأجوبة المسكتة " .

وهنا يقاطع أحد الأقلام الشابة اليراع الشيخ ويسأله فى لهفةٍ قائلاً :" ومن هذا الرجل يا صديق العلماء ومُسَطِرِّ الإبداع " ؟

فى حماسة يقول القلم : " إنه عالِم اللغة العربية ، وأحد أبــرز رجــالات جماعة جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، وأستاذ كل مــن : مــصطفى كامل، وطه حسين ، وغيرهم ، إنه الــسياسى الأريــب ، والقــانونى الأديــب ، والقاضى بالمحاكم الأهلية بمصر المحروسة ، والذى خدم أمته فى ميادين اللغــة والأدب والصحافة والقانون ، وختم كل ذلك بخدمته لرسم المصحف الــشريف ــ رسم عثمان بن عفــان ــ فى طبعته الحكومية التــى تقــوم بنــشرها المطبعــة الأميريــة ، فسلخ فى سبيل ذلك سبع سنوات كاملات ، وأبى أن يتخِـذ عليــه

أجــراً ، وقد أمهله الله حتى أقر آخر تجربة طبع له ، وتوفى بعد ذلك بأيام ، إنه **حفنى بك ناصف** ، أبو ملك حفنى ناصف باحثة البادية ، وكفى " .

توقف صديقى القلم ، فراحت عيون الأقلام كلها ترمقنى وعلامات البــشر تعلو وجوهها ، حينذاك أدركت بفطنة مَن عاش وسط الأقــلام ، ويفهــم لغــتهم وهمسهم ، أنهم ظنوا أن قرابة تربطنى بهذا العملاق العالِم ؛ لأن اســمى يــشبه اسمه .

وجدتنى أسكت قليلاً ، إلا أننى عــاودت الحديث فقلت فى جدية ممزوجــة بالتمنى: " هو والله ليس بجدى ولا بعمى ، وإن كنت لأشرف إن كــان عمــى أو جدى ، والحقيقة أن هذه القرابة تلاحقنى أينما وليت وجهى ، وأنــا أســعد بهــا وأنفيها ، وإنما تأتى سعادتى ؛ لأن الرجل مازال فى عقول وقلوب بعــض أبنــاء الوطن من المخلصين والشرفاء.

واستكمالاً لحديث أبيكم الشيخ عن هذا العالِم الجليل أذكــر : "أنــه عنــدما اختارت وزارة التربية والتعليم (المعارف سابقًا) حفنى بك ناصــف ومــساعديه لتصحيح رسم المصحف الشريف على طريقة عثمان بن عفــان ، أثيــرت ضــده زوبعة مغرضة لا تخلو من إجحاف وإسفاف ، فكان فــى ردوده يعنــى بجــوهر الموضوع ، ويتعفف عن المساس بالأشخاص ، بل يلتمس لهم الأعــذار ، وتلــك ميزته عن كثيرٍ من الأدباء ورجال الصحف ، وأسوق على ذلك ما ســطره فــى صحيفة الأهرام :

دار فى هذه الأيام كلام طويل فى شأن رسم المصاحف الشريفة بين : وادى النيل ، والأهالى ، والأفكار ، والأخبار ، أثـار عُجاجـه الأستـاذ الفاضـل الشيـخ ... من علماء معهد ...؛ غيرةً على الدين ، وحرصًا على القرآن أن تعبث به أيدى العابثين، وهى حفيظة [1] يُحمد عليها ، وغـضب يـستحق عليـه الرضى.

والظاهر أنه جاءه فاسق بنبأ فلم يتبـين ، فأصـابنى ووزارة المعـارف بجهالـة ، وشنها علىَّ وعلى إخوانى غارة شعواء ، وقلَب محاسننا (اللاتى ندل بها) [2] ذنوباً ، سامحه الله وكفاه شر العجلة ، والآن فلتسمحوا لـى أن أسـرد الحقيقة فى صحيفتكم ليعلم الناس أنّا لم نجئ شيئاً نكراً ".

عندئذٍ اقترب قلم فتىً من اليُراع الشيخ وسأله : " وماذا عن نشأة هذا العـالِم ، وعن نثره الذى قيل عنه إنه أشد حلاوة من الشهد " ؟

---

(١) الحفيظة : الحمية والغضب.

(٢) ندل بها : نفتخر بها.

اعتدل القلم فى جلسته وقال : " حتى نقترب من الرجل أكثر ، أســوق إليك ما كتبه حفنى ناصف ، عندما طلب منه (على رفاعة)[1] نــاظر دار العلــوم ، وهو طالب بها ، أن ينشئ رسالة تتضمن تاريخه من منشئه إلى وقت دخوله دار العلــوم ، فكتب إليه يقول:

" سألت ــ أيدك الله ــ عن منبت شجرى ، ومبتدأ خبرى ، وكيفية ســيرى . فاعلم أن مسقط رأسى ، والأرض التى بها غرسى (بركة الحج)[2] ، التى ترد إليها الوفود من كل فج – قرية ذات أعناب ونخيل ، بينها وبين مــصر مــن مــشرق الشمس ميل ــ وربيت فى حجر الترف والمجد والشرف ــ بيــد أن أبــى جــاور مــولاه ، قبل أن تقر بى عيناه ــ وشرعت فى حفظ القرآن ، فكنت بحمد الله من الأتراب كالشهاب ، وسبقت الأقران فى القرآن ، إلى أن أذن الله بالانتقــال إلــى مصر محط الرحال .

فشرعت فى الفور إلى أن تجاوزت الطور ، فى أقل من عــام ، ثــم حــصل الإتمام مع معرفة الأحكام ، ثم أخذت فى تعلم المعارف فى ظل الأزهر الــوارف ، فحصلت منه ما قرت به عيناى ، وإنى وإن نازعنى الزمان فى طلــب العرفــان ، وقابلنى بالعوائق ، كنت أتصبر تصبر العاشق ، وأقاومه مقاومة الــشجعان فــى الميدان .

---

[1] على رفاعة باشا : هو ابن رافع رفاعة الطهطاوى ، كان وكيلاً لوزارة المعارف .

[2] بركة الحج : قرية قريبة من المرج ، قرب القاهرة .

ولما حاربتنى الأيام ، وأعيانى المقام ، رأيت أن الفخر لا يتقيد أن يكـــون بمصر ، والصبر على تحمل ذلك الإصر[١].

ويستطرد حفني فى الحديث إلى أن يصل فى النهاية إلى قوله :

حتى سمعت بدار العلوم ، ذات الفضل المعلوم ، فوردت مـــن منهلهـــا الرائـــق ، واهتديت بنورها الشارق[٢] ، فما سمعت أذنى بأطيب مما قـــد رأى بـــصرى ، فنظمـــت نظرى فى سلكها ، وأطربتنى حمائم الفنون تغرد على أيكها ، فاســـتفدت مـــن غرائبهـــا فرائد الفوائد ، واقتنصت من سباسبها شوارد الأوابد [٣] ، فلله من أنشأها فـــى مـــصر عروساً ، وأطلع تلاميذها فى آفاق القطر شموساً ، حتى صارت بذكر مآثرها الركبـــان ، ونطق بالثناء عليها لسان الزمان ، فشأوها به لا يضاهى، وفضائلها لا تتناهى [٤] " .

---

(١) الإصر : الذنب والثقل.

(٢) الشارق : أشرقت الشمس ، أى طلعت.

(٣) شوارد الأوابد: الغريب من الكلام.

(٤) نثر حفنى ناصف ، شرح وتقديم: الدكتور محمد مهدى علام ، عميـــد كليـــة الآداب ، جامعة عين شمس، وعبد الحميد حسن وكيل كليـــة دار العلـــوم ســـابقاً ، مطبوعـــات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والأداب والعلوم الاجتماعية ، يونية ١٩٦٠ ، ص ٦ .

نظر إلىّ أحد شباب الأقلام وسألنى :" يا صاحب القلم ، فلتحدثنا عن خطـاب حفنى بك ناصف إلى توفيق البكرى ، والذى يقول عنه جُل من قرأه ، إن حفنـى قبل كتابته له أخذ يجمع قواه ، فلما اجتمعت له ، راح يغرف من بحر العربيـة ، فإذا به تارة ينثر الفل والياسمين على توفيق ، وأخرى يصفعه على وجهه ، بـل أجهز عليه فقتله بحراب وسهام اللغة من غير إراقة دماء "؟

لا أخفى عليكم كم راق لى سؤال القلم الشاب ، لذلك رأيتنـى أبتـسم لـه وأقـول : " كان توفيق البكرى ، شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، تربطه وحفنـى روابط قوية من الصداقة ، وكانت لهما ندوة تضم العلمـاء والأدبـاء ورجـال الفكـر .. وفيما يبدو أن توفيق تجاهل حفنى ، تاره بعينيه ، وأخرى بعقله ، فعزّ على حفنى ناصف – وهو صاحب القدر المعلى – أن يعامل من صـاحبه بهـذه القسوة ، خاصة وأنه فى بيته ، حينذاك بعث إليه بكتابه الذى يقول فيه :

كتابى إلى السيد السند ، ولا أجشمه [1] الجواب عنه ، فذلك مـا لا أنتظـره منـه ، وإنما أسأله أن ينشط إلى قراءته .

---

(1) أجشمه : أكلفـه .

زرت السيد ، ويعلم الله أن شوقى إلى لقائه ، كحرصى على بقائه ، وكلَفى بشهوده [1] ، كشغفى بوجوده ، فقد بعد والله عهد هذا التلاق ، وطال أمد الفراق ، وأنا من رؤيته فى حرمان ، فسألت عنه ، فقيل لى : إنه خرج لتشييع زائر ، فانتظرت رجوعه ، وترقبت طلوعه ، ولم أزل أعد اللحظات ، وأستطيل الأوقات ، حتى بزغت الأنوار ، وارتجّ صحن الدار ، وظهر الاستبشار على وجوه الزوار .

وجاء السيد فى موكبه ، فقمنا لاستقباله ، فمر يتعرف وجوه القوم حتى حازانى ، وكبر على عينيه أن يرانى ، فغادرنى ومن على يسارى ، وأخذ فى السلام على جارى ، وجر السلام الكلام ، وتكرر القعود والقيام ، وأنا على هذه الحال ، أوهم جارى أنى فى دارى .. وكنت أظن مكانتى عند السيد لا تنكر ، وأن عهدى لديه لا يُخفر [2] ، فإذا أنا لست فى العير ولا فى النفير ، وغيرى عند السيد كثير ، وذهاب صاحب أو أكثر عليه يسير.

ولا أدعى أنى أوازى السيد ـ صانه الله ـ فى علو حسبه ، أو أدانيه فى علمه وأدبه ، أو أقاربه فى مناصبه ورتبه ، أو أكاثره فى فضته وذهبه ، وإنما أقول ينبغى للسيد أن يميز بين من يزوره لسماع الأغانى والأذكار ، وشهود الأوانى على مائدة الإفطار ، وبين من يزوره للسلام ، وتأييد جامعة الإسلام ، وأن يفرق بين من يتردد عليه استخلاصاً للخلاص ، ومن يتردد عليه إجابة لدعوة الإخلاص ، وأن لا يشتبه عليه طلاب الفوائد ، بطلاب العوائد ، وقنّاص الشوارد، بنقباء الموالد .

---

(١) كلفى بشهوده : حبى الشديد لرؤيته .

(٢) لا يخفر : لا ينقضى .

فلا يصعر السيد من خده [١] ، فقد رضيت بما ألزمنى من بعده ، ولا يفض من عينه ، فهذا فراق بينى وبينه ، وليتخذنى صاحباً من بعيد ، ولا يكلمنى إلـى يوم الوعيد.

ومنى على السيد السلام على الدوام ، ومبارك له إذا لبس جديداً ، وكـل عام وهو بخير إذا استقبل عيداً ، ومرحـى إذا أصـاب ، وبالرفـاء والبنـين إذا أعـرس ، وبالطالع المسعود إذا أنجب ، ورحمه الله إذا عطس ، ونوم العافية إذا نعس ، وهنيئاً إذا شرب ، وما شاء الله إذا ركب ، ونعم صباحه إذا انفجر الفجر ، وبَخٍ بَخٍ [٢] إذا نثر ، ولا فُض فوه[٣] إذا شعر ، وأجاد وأفاد إذا خطب ، وإذا حج البيت فحجاً مبروراً ، وإذا شيع جنازتى فسعياً مشكوراً ، والسلام".[٤]

عندما فرغت من حديثى ، اقترب أحد الأقلام الفتية من اليُراع الشيخ وقال: " لقد عاش حفنى ناصف ، رجلاً عصامياً أبياً كريماً على نفسه وعلى أمته، حبيباً إلى أصدقائه ، مصدر خير ، ومنار علم ، ومعين فكاهة لكل من اتصل به ، فياليتك الآن تُحدثنا ، ولو عن موقفٍ واحدٍ وقفه مع صاحب له ، ثم تحدثنا بعد ذلك عـن بعض فكاهاته التى اشتهر بها "؟

---

(١) يصعر خده : يميله كبراً وعجباً .

(٢) بخ بخ : كلمه تقال عند استحسان الشىء والإعجاب به .

(٣) لافض فوه : أى لا خلا من أسنانه ، وهو تعبير يقصد به المدح .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٨ ، ٩ ، ١٠ .

أراح الشيخ رأسه على المقعد وقال : " أما عن الموقف فهو : جاءه مـــرة لبنانى اسمه (رشيد مصوبع) بنسخ عديدة مـــن ديوان شعر له ، طبـــع علـــى ورقته الأولى قصيدة أهدى بها ديوانه هذا إلى حفنى وكان مطلعها :

لمن أشتكى حالى ولوعة ما بـــى .. سوى حفنى بك ناصف ذى الآداب؟

فلما آنس أنه ما ينبغى له أن يشجع الناس على ذيوع شعر كهذا أعطـــى الناظم عشرة جنيهات (وكان مرتب حفنى إذ ذاك أربعين جنيهًا) وأشـــار عليـــه بخلع الورقة الأولى، على أن تحل المطبعة محلها ورقة جديدة تحمل إهداء لشخص آخر ، ممن يسرهم مثل هذا الحديث .. ولما علم حافظ إبراهيم بذلك بعد اطلاعه على ذاك الشعر قال لحفنى : " حسناً فعلت ، لأنه مصوبع مدوحس" [١]

سكت القلم الشيخ قليلاً ، وكأنه يقلب صفحات التاريخ ، وسرعان ما قال : وأما عن فكاهاته فيحضرنى منها الآتى :

- عندما كان حفنى ينتظر دوره فى الترقية وهو قاضٍ فى الصعيد ، سافر زميل له من الذين يلونه فى الترتيب إلى القاهرة متعللاً بعذر يخـــص أسرتـــــه .. وهناك سعى حتى(قلب) " حفنى " واقتنص لنفسه ترقيته التى نُشر نبؤها فى الجرائد ، فأراد حفنى أن يهنئه ، ويشير فى الوقت نفسه إلى أنه فهم المقلب ، فأرسل له برقية لا تزيد عن كلمتين عبر بهما عن المعنيين معاً فقال (أهنيكم بقلبى) .

---

(١) من حديث للأستاذ / مجد الدين حفنى ناصف ، على هامش حياة والده .

- ألف حفنى ــ من كثرة تخطيه فى الترقية وغمط حقه برغم كثرة عمله ودقــة عدله ــ جماعة ممن كان حظهم مثل حظه أسماهــا جمعية " المستحمرين " ، فسمع بندواتها المشوّقة أحد الباشوات ، فقال لحفنى عند أول لقاء : إنه يود أن يشترك فى جمعية المستحمرين هذه .. فأجاب حفنى على الفور : إنت مش حايز لشروط العضوية لأنك حمار أصلى) .
- كان حفنى يسأل فى الجلسة شاهدًا ــ كالمعتاد ــ عن اسمه وســنه وســكنه وصناعته فلما وصل إلى الصناعة قال :" مغنى "، فسأله حفنى علــى الفــور (قل لى رأيت إيه) وهذه العبارة هى مطلع دور لعبده الحامولى .
- كان حفنى مدعوًا فى حفل رسمى بطنطا ، ولم يتسع وقتــه لإصــلاح شــأن نفســه ، فلما جلس فى المكان الخالى إلى جانب " محب باشا " (وكان مدير الغربية المتغطرس الذى يكره " حفنى " ، لأنه سبق له أن أصدر حكمًا لغيــر صالحه) ، فانتهز محب هذه الفرصة لينال من حفنى ، ومال عليه ملاحظــاً بصوت مسموع بعض الشىء ، أنه لم ينفض الغبار عن حذائه قبل أن يــأتى إلى حفل رسمى كهذا ، فمال حفنى على جاره وقال له مــن فــوره بــصوت مسموع كذلك :" المدير كان بيعمل لى ملحوظة ع الجزمة" فلم تمض هنيهــة حتى ضج الجميع بالضحك ، عند ذلك شعر المدير بالخجل .
- دخل حفنى مرة عند ترزى ، واختار قماشاً لبذلة ، وخــرج مــتعجلاً فنــاداه الترزى قائلاً : إنه لم يأخذ بعد مقاس البذلة حتى يفصلها .

  فقال حفنى ــ وكان بدينًا ــ (فصلها على زير) .

• كان حفنى جالسًا فى مقهى ، فمر عليه شحاذ يستجديه وهو يقول " ربنا مـــا يرقد لك جته فى أرض ، فقال حفنى على الفور (يعنى حكمت علىَّ بأنى أموت غرقان) .

فرغ اليراع الصديق من حديثه ، وراح يجول ببصره فى الحضور وقـــال بعين دامعة ، أحب أن أختم حديثى عن هذا العالِم الجليل ببعض أبيات شعر لـــه ، كتبها عندما تحسر ذات يومٍ خشية من ضياع ما بذله من اكتساب المعرفة ، ومـــا تكمل به من تجارب فقال:

أتقضى معى – إن حان حينى – تجاربى ** وما نلتها إلا بطول عنـــــــاء
وأبذل جهـــدى فى اكتســــــاب معارف ** ويفنى الذى حصلته بفنـــــائى
ويحزنـــــــــنى ألا أرى لــــى حيلـــــة ** لإعطائها من يستحق عطـــائى
إذا ورّث المثـــــرون أبناءهم غـــنى ** وجاهاً ، فما أشقى بنى الحكماء

****

استأذننى صديقى القلم فى أن ينهى حديثه الأول عند هذا الحد ، فلما أذنت له فى حب ، اقترب منى ، وفى رفقٍ حملته ووضعته فى الدرج ، علـــى أمـــل أن يُسمعنى همسه كل يوم ، فكم لهمسه من حلاوة لا يشعر بها إلا من كان يعلم أن القلم والورقة هما طرفا الإبداع .

****

المراجع :

١- القرآن الكريم ٠

٢- منهاج المسلم ، لأبىبكر الجزائرى ٠

٣- بلاغات النساء ٠

٤- البيان والتبيين للجاحظ ٠

٥- الأغانى للأصفهانى ٠

٦- ابن جرير ٠

٧- طبقات ابن سعد ٠

٨- منظور الخط العربى ، لناجى زين الدين ٠

٩- صبح الأعشى للقلقشندى ٠

١٠- الخط العربى وأدوات الكتابة ، د. مجاهد توفيق الجندى ٠

١١- معجم البلدان لياقوت الحموى ٠

١٢- معجم الأعلام لخير الدين الزركلى ٠

١٣- فتوح البلدان ، للبلاذرى ، تحقيق : رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ٠

١٤- الإصابة فى معرفة الصحابة ، لابن حجر العسقلانى ٠

١٥- مناهل العرفان ٠

١٦- تاريخ الأدب العربى ، الجزء الرابع ، تأليف : أحمد الإسكندرانى ، أحمد أمين بك ، على الجارم بك ، عبد العزيز البشرى ، الدكتور أحمد الضيف .
١٧- كليلة ودمنة ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، القاهرة.
١٨- أيام صلاح الدين ، عبد العزيز سيد الأهل .
١٩- أعيان الشيعة .
٢٠- محمد فريد ، سلسلة العظماء ، محمد عطية الأبراشى.
٢١- تاريخ اليعقوبى.
٢٢- الخراج ، لأبى يوسف.
٢٣- بدائع الصنائع.
٢٤- الإسلام والحضارة العربية .
٢٥- وفيات الأعيان لابن خلكان .
٢٦- تاريخ الخميسى.
٢٧- عيون الأخبار لابن قتيبة.
٢٨- الكامل ، للمبرد.
٢٩- دائرة المعارف ، للبستانى .
٣٠- النجوم الزاهرة.
٣١- الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء ، محرم كمال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٣٢- زين العابدين بن على بن الحسين ، عبد العزيز سيد الأهل٠
٣٣- الصفوة ٠
٣٤- تاريخ مصر منذ فجر الحضارة ، مجموعة محاضرات للأستاذ سيد توفيق ، والدكتور / سيد أحمد
٣٥- رمسيس الثانى فرعون المجد والانتصارات ، كنت أ. كتشن ، ترجمة د. أحمد زهير أمين ٠
٣٦- عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
٣٧- سمير نعيم أحمد ، أهل مصر ، ط ، ١٥٣ .
٣٨- عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، وتطور نظام الحكم فى مصر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .
٣٩- عمر عبد العزيز ، تاريخ مصر والمعاصر ، دار المعرفة الجامعية ، الأسكندرية ، ١٩٩٣ .
٤٠- طارق البشرى ، المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
٤١- عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم الأخبار ، تحقيق عبد الرحمن عبد الرحيم ، الهيئه العامة للكتاب ، ٢٠٠٣ .

محتويات الكتاب

مطبعة الحرف الذهبى
ت : ٥٦١٩٦٨٦